

دروس و محاضرات في مادة

## شخصيات افريقية في العصور الوسطى

السنة الاولى ماستر تاريخ

تخصص: افريقيا جنوب الصحراء

إعداد الدكتور : نور الدين شعباني

## المحور الأول: سوندياتا كيتا مؤسس إمبراطورية مالي الإسلامية

### أولاً: سونديا في المصادر التاريخية:

تعد شخصية سوندياتا من أكثر الشخصيات التي شغلت اهتمام المالميين والمالدينغ، كما جلبت اهتمام كل شعوب غرب إفريقيا. إلى درجة أصبحت فيه معظم قبائهم وعشائهم تنسب نفسها إلى هذا الرجل العظيم، ونسجت حول شخصيته حكايات وأساطير جعلت منه بطلاً أسطورياً خارقاً يتمتع بمواهب فذة في القتال، وقوى سحرية فريدة من نوعها.

و رغم ذلك فإننا نجد بأن اسم سوندياتا كان من أقل الأسماء تداولاً من طرف المصادر العربية، على خلاف أبنائه وأحفاده الذين كان لهم النصيب الأوفر في كتبهم. وقد انفرد ابن خلدون بذكر ماري جاطة ( يقصد به سوندياتا) بقوله: « وكان ملكهم الأعظم الذي تغلب على صوصو وافتتح بلادهم وانتزع الملك من أيديهم اسمه ماري جاطه ... ولم يتصل بنا نسب هذا الملك » ورغم أن رواية ابن خلدون تعد أهم نص مكتوب نملكه عن هذه الفترة من تاريخ مملكة مالي، وعن شخصية سوندياتا، إلا أنها لم تتمكن من تزويدنا بنسبه. كما أنه لم يشير إلى فترة حكمه واكتفى فقط بذكر مدة حكمه التي قدرها بخمس وعشرين سنة. وهنا نجد أنفسنا مضطرين إلى بالاستعانة بالمصادر الشفوية منها للإجابة على التساؤلات العديدة بشأن شخصية سوندياتا، رغم ما يشوب هذه المصادر من مبالغات ومن طابع أسطوري مليء بالخوارق .

تنسب الروايات الشفوية سوندياتا إلى أسرة كيتا التي حكمت مالي منذ توحيد إمارتي "دو" و"كيري" خلال أوائل القرن الخامس للهجرة/11م، عل يد جدهم الكبر مامادو كاني، بحيث يعد حسب هذه الروايات الملك الثامن لمملكة مالي من نسل كيتا . بينما ينسب سوندياتا من حيث الأم إلى عائلة كونتي التي تعد أقدم عائلة سكنت إمارة دو وتزعمتها حتى قبل مجيء آل كيتا إليها. وتدعى أم سوندياتا بسوغولون كيجوكو أو ( سوغولو كوتوم) وهي شخصية أحيطت بها أيضاً الكثير من الأساطير، ونسبت إليها الكثير من القدرات و المهارات الخارقة، وكانت لديها أخت تسمى دو

كاميسا (Do kamissa) تقول عنها الروايات الشفوية الخاصة بالوثنيين بأنها كانت ساحرة خطيرة قبل أن يقضي عليها والد سوندياتا ناري فاماغان.

أما الروايات الخاصة بالرواة المسلمين فنجدها كعادتها تحاول أن تجد لسوندياتا نسبا شريفا يصل إلى أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومثلما نسبت آل كيتا إلى دوجون بيلالي أو (بلال بن رباح) الصحابي الجليل و مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنها تنسب سوغولون كيجوكو والدة سوندياتا إلى شخصية ساما لونا (Sama Lonan)، والتي تقول عنه هذه الروايات بأنه صحابي جليل، وكان له من الأبناء والأحفاد ألف رجل، جمعهم ومنحهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليحاربوا إلى جانبه في معركة خبير ضد اليهود، والتي تذكرها هذه الرواية باسم كيببارا (Kayibara). وكان هؤلاء الأبناء الألف كلهم من صلبه بعدما تزوج من عدة زوجات، وعندما انتهت المعركة بقي كل أبناءه هناك في خبير ولم يعودوا (أي استشهدوا كلهم في ميدان المعركة)، ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصته، وكان ساما لونا عجوزا ، فدعا له الله بأن يرزقه ذرية أخرى تعوضه عن الأبناء الذين فقدهم، وترثه بعد موته. فاستجاب الله لدعاء رسوله، وأعاد لساما لونا ولزوجته شباهما، فأنجبا اثنا عشرة ولدا، هاجروا فيما بعد إلى أرض مندن، وبالتحديد إلى إمارة دو قرب نهر السنكراني، وبالتالي خرجت منهم القرى الإثنتا عشر التابعة لإمارة دو.

إذا فوالدة سوندياتا سوغولون كيجوكو تنتمي إلى عائلة كوناتي، وهي أقدم عائلة في المندي، وهي أول من تزعم إمارة في المندي وهي إمارة دو، التي بفضل اتحادها مع إمارة كيري تشكلت مملكة مندي أو ملل أو مالي. وبهذا يكون سوندياتا كيتا قد جمع في نسبه بين أعرق وأشرف عائلتين في بلاد مندن، وهما عائلي كيتا من جهة الأب، وعائلة كوناتي من جهة الأم.

## 1 . أسماءه:

لقد تعددت وتنوعت أسماء سوندياتا كيتا بتنوع وتعدد الروايات التي ترددت بشأنه، وبتنوع اللهجات واللغات التي رويت بها. ويعد أول اسم أطلق على مؤسس إمبراطورية مالي هو سوجاتا ، حيث أطلق عليه يوم ولادته من طرف القابلة التي جاءت لتعلن نبأ ولادته لأبيه ناري فاماغان، فقالت له : « إن سوغولون كيجوكو (أي والدة سوندياتا ) أنجبت طفلا، إنه ولد، ولد سو . جاتا

ومعناها الحصان الأسود. ولما سمعها الأب قال : «لقد نطقت باسمه، سنسميه ماغان سو . جاتا».  
ولقد تحول هذا الاسم فيما بعد إلى سونجاتا ثم إلى سوندياتا.

وهناك روايات أخرى تذهب إلى أن أصل تسميته يرجع إلى أمه التي لقبته بأمر الأسد التي تلفظ بلغتهم (سوغولون - جارا (Sogolon -Jara) ومعناها " أسد سوغولون". بعد ذلك حدث تحريف في كلمة جارا التي تعني الأسود، وتحولت إلى جاتا، وفي أحيان أخرى تحولت إلى جالا، وجادا، وبالتالي أصبح الاسم "سوغولون جاتا". ولما تداول هذا الاسم المبار والمالكي أصبحوا ينطقونه بسرعة فأعطى "سولون جارا" ثم تحول إلى "سون جارا" أو "سون جاتا"، ولما انتقل هذا الاسم إلى اللغة الفرنسية تحول نطقه إلى سوندياتا. أما ابن خلدون فرغم أنه أورد اسما يختلف من حيث النطق، لكنه يقترب كثيرا من حيث المعنى الذي ذكرته الروايات الشفوية، فهو يقول: «اسمه ماري جاطه، ومعنى ماري عندهم الأمير الذي يكون من نسل السلطان، وجاطه الأسد».

وإلى جانب اسمه هذا فإن سوندياتا حظي بألقاب أخرى عديدة من طرف الرواة الشفويين، حيث كانوا ينادونه مرة ماغان كوناتي، ومرة ماغان ماغان كوناتي وذلك نسبة إلى أبيه ناري فاماغان، كما وجدت تسميات أخرى له مثل "بورومون جان كوناتي"، و"مندن منسا" (أي ملك مندن)، وسيمبو (أي بطل الصيد)، ونجد أيضا اسم "سوكو - سوكو سيمبو" وهو اختصار لاسم أمه سوغولون مضاف إليه لقب بطل الصيد. وعموما فإن سوندياتا قد أطلقت عليه عدة ألقاب ، لكن الاسم الأكثر شهرة والأكثر تداولاً يبقى سوندياتا أو سونجاتا.

## 2. مولده و نشأته:

تقول بعض المصادر بأن سوندياتا ولد بقرية نياني سنة 1190م بينما يقول آخرون انه ولد بداكاجالان. لكننا نرجح الرأي الثاني لان داكاجالان هي أقدم قرية اجتمع فيها زعماء مندن، وكانت مقر ملوكها من آل كيتا، كما أن والد سوندياتا ناري فاماغان كان يقيم فيها و بها توفي.

ويعد والد سوندياتا زعيما للصيادين ( سيمبو)، وملكا للمندي وهو ناري فاماغان وأمه هي الزوجة الثانية لناري فاماغان، وهي سوغولون كيجوكو. ذلك أن والد سوندياتا تزوج من امرأة أولى تسمى

ساسوما بيريتي والملقبة بالنقية أو الطاهرة، وهي ابنة تال ماغان بيريتي أحد أمراء المندي، لكنها لم تتمكن من الحمل والإنجاب. وتقول بعض الروايات أنه في إحدى الأمسيات عندما كان والد سوندياتا جالسا تحت شجرة، جاءه أحد المنجمين وأخبره بأنه إذا أراد أن ينجب وليا للعهد فلا بد له أن يتزوج بامرأة أخرى، وهي امرأة قبيحة الوجه وحدهاء، والتي سوف تنجب له الفاتح الجديد، والوريث الذي يصنع عظمة مملكة مالي.

لهذا قام ناري فاماغان وطلب من الصيادين أن يحضروا له هذه الخادمة القبيحة. فتمكنت أخته ناكان تيليبا (Nakan Tiliba) من إيجاد هذه الفتاة التي كانت محتبئة في بيتها لأنها كانت قبيحة وجسمها مليء بالثآليل، وإحدى عينيها أعلى من الأخرى، وحدهاء. وكانت هذه المرأة تسمى "سوغولون كيجوكو" وتدعى أيضا "سوغولون كوندي" أو "سوغولون كوندوما"، فتزوجها ناري فاماغان ودخل بها، لكن زوجته الأولى بيريتي حبلت في نفس الوقت الذي حبلت فيه زوجته الثانية سوغولون، إلا أنها (أي الزوجة الأولى) وضعت مولودها أولا، حيث أنجبت طفلا ذكرا هو دانكران تومان، فطلبت من قابلتها أن تذهب إلى ناري فاماغان وتخبره بأنها أنجبت له أول أولاده، لكن القابلة عندما وصلت إلى بيت ناري فاماغان وجدته يتناول حساءه الصباحي، فقررت أن لا تخبره بميلاد الطفل حتى يفرغ من فطوره، لكن في صباح ذلك اليوم وضعت سوغولون كيجوكو مولودها هي أيضا، فقامت المرأة التي كانت ترافقها مسرعة إلى ناري فاماغان، وعندما اقتربت من مسكنه ودون انتظار صرخت قائلة: (( يا فارا كورو ماكان كينيبي انفخ في فمي، فلقد جئتك بيشري، إن سوغولون كيجوكو قد ولدت لك ولدا ذكرا يشبه سو - جاتا)) أي يشبه الحصان الأسود، فابتهج ناري فاماغان، وقال لها: (( آه، لقد نطقت الآن باسم هذا الولد، سنسميه ماغان سونجاتا)) بعد ذلك قامت قابلة ساسوما بيريتي وأخبرته بأن زوجته الأولى أيضا أنجبت ولدا ذكرا، وأنها هي من وضعت طفلها أولا حيث وضعت في منتصف الليل، بينما سوندياتا ولد في الصباح، فأجابها ناري فاماغان بان الطفل الذي اخبر بمولده أولا هو البكر. فهناك حكمة مشهورة في بلاد مندي تقول بأنه إذا وجد صيادان فريسة، فإنها تصبح ملكا لمن قال وجدتها أولا. ومن تلك اللحظة اندلعت حربا خفية بين الضرتين، وبدأ الحقد يملأ قلب ساسوما بيريتي على سوغولون كيجوكو وابنها، وبدأت معها معاناة سوندياتا منذ لحظة ولادته.

بدأت حياة سوندياتا بصراع عائلي يبدو في ظاهره مجرد نزاع أسري بين ضرتين، لكنه في الحقيقة كان أكبر وأعمق من ذلك. فهو صراع سياسي في باطنه، ذلك أن ساسوما بيريتي كانت ترى في سوندياتا وأمه منافسين لابنها "دانكران تومان" على ولاية العهد الخاصة بعرش مالي، والذي كانت تعتقد بان سوندياتا قد اغتصبه من ابنها بغير وجه حق، طالما أن ابنها كان هو من ولد أولاً، وبالتالي فهو الحق بولاية العهد، وبعرش مندن بعد أبيه. وقد بدأت المصاعب تلاحق سوندياتا منذ نعومة أظفاره، فقد تبين بعد أشهر من ولادته بأنه كان معوقاً حركياً ولا يمكنه الوقوف على رجليه. وبقي على ذلك الحال لمدة ثلاث أوسع سنوات. إلى أن قرر التغلب على عجزه، و يقف على رجليه. وبعد عدة محاولات و مجهودات كبيرة ومتكررة استطاع سوندياتا الوقوف على رجليه وهناك روايات تذهب إلى أنه لم يستطع الوقوف إلا بعدما استعان بالعصا الملكية لأبيه.

تمكن سوندياتا من الوقوف على رجليه في سن السابعة من عمره، وبدأ يكبر شيئاً فشيئاً، حيث أصبح يتقن حيوية، واكتسب مهارات قتالية عالية، وهو ما جعل أخاه دنكران تومان وأمه ساسوما بيريتي يتقدان غيره منه وحسد، ومما زاد في تعقد أوضاع سوندياتا ومحتته هو وفاة أبيه ناري فاماغان عام 1218م، وتولي أخاه دنكران تومان عرش مندن. رغم أن أباهما كان قد صرح عند ولادتهما بأن سوندياتا هو البكر الذي سيرث العرش من بعده. لكن دنكران تومان تمكن من اغتصاب الملك متحججاً بولادته قبل أخيه سوندياتا. وأمام هذا الجدل حول شرعية الملك بين الإخوة، قرر سوندياتا أن يهاجر إلى خليج مندن، استناداً إلى وصية كان قد أسداها له أبوه الراحل قبل وفاته قائلاً له: «يا ولدي، لا بد عليك من مغادرة مندن لمدة سبعة عشر سنة كاملة، فإذا لم تغادر مندن خلال هذه المدة فإن الناس سيعارضون القدر الذي كتب عليك، فأنا سأغادر هذا العالم».

من خلال هذه الوصية نرى بان فاماغان كان يتمتع ببعده نظر، وكان يدرك جيداً بأن هناك أزمة وراثية على العرش كامنة بين ولديه، وأنها ستخرج للعلن بمجرد وفاته، لذلك أراد أن يجنب سوندياتا عواقبها، وأن يمنع وقوع حرب الأشقاء.

أخذ سوندياتا بوصية أبيه، وشق طريقه إلى المنفى، وأخذ معه أمه سوغولون كيجوكو، وأخته الصغرى "سوغولون كولونكان" وأخويه غير الشقيقين "ماندي بوري" أو (ماندن بوكوري) و"سيري بانجوكو". لكنه في طريقه إلى منفاه كان يلاحقه مبعوث أخيه وهو "كانكير واداني" من قرية إلى قرية، ومن إمارة إلى أخرى، حاملا معه ثلاث مئاقيل من الذهب كان يعرضها على كل من يساعده على الإمساك بسوندياتا ومرافقيه، لكن سوندياتا تمكن من الإفلات من تلك المطاردات إلى درجة أن أخاه دانكران تومان قرر الخروج بنفسه لملاحقته. وأخيرا تمكن سوندياتا من الذهاب إلى إمارة ميمما في منطقة الساحل، أين طلب من حاكمها اللجوء. واستقبله هذا الأمير وشعبه بحفاوة كبيرة، واحتضنوه بدون تحفظات، ومنحوه أراض استقر فيها هو وأهله، وقد أعجب ملك ميمما كثيرا بشجاعة الشاب سوندياتا، فأوكل إليه مسؤوليات كبرى.

ولقد بقي سوندياتا في ميمما إلى غاية اعتلاء سومغورو كانتني عرش الصوصو، حيث أخضع كومي عاصمة غانة، وبعدها رأى بأن مملكة مالي تشكل خطرا حقيقيا على سلطته، فقرر أن يغزوها. وهنا يبدأ الصراع بين مملكة الصوصو ومملكة مندي(مالي)، وتبدأ معه ملحمة سوندياتا التاريخية من خلال أعماله ومجهوداته الجبارة في سبيل الدفاع عن مملكته من الزوال على أيدي ملك الصوصو أولا، ثم جعل منها إمبراطورية واسعة بلغ صداها كل العالم القديم.

#### 4. اعتناقه للإسلام:

لعل من بين أهم المواضيع التي أثارت جدلا بخصوص شخصية سوندياتا هي قضية اعتناقه للإسلام، أو بالأحرى ديانته، فهل كان سوندياتا مسلما أم وثنيا؟ وهنا أيضا نجد أنفسنا في مأزق حقيقي للإجابة على هذا السؤال المثير للجدل في غياب المصادر المكتوبة. لهذا سنكون مرة أخرى رهينة المصادر الشفهية التي كما رأينا سابقا تنقسم إلى روايات مصدرها الوثنيون الزوج من طائفة الصيادين، ويحاولون أن ينفوا أية علاقة لسوندياتا بالإسلام، وجعله وثنيا متمسكا بالتقاليد الزنحية المرتبطة بالسحر وعبادة أرواح الأجداد. وروايات أخرى مصدرها الفقهاء وأحفاد سوندياتا المسلمين، والتي تحاول أن تظهر هذا الملك بمظهر المسلم الورع المجاهد، والمتمسك بمبادئ الإسلام، والملتزم بتعاليمه. لكننا إذا تتبعنا مسيرة عائلة كيتا نجد أن سوندياتا يكون من المسلمين على اعتبار أن أسرة

كيثا دخلت الإسلام منذ عهد جددهم برمندانه الشهير. ولم يرد في الروايات الشفوية على اختلاف مصادرها بأن أحد أحفاده قد ارتد عن الإسلام. لكننا رغم ذلك نجد بعض الرواة من غير المسلمين، وفي مقدمتهم راوي منطقة كيرينا وهو واكاميسوكو (Wakamissoko) يحاول أن يجتهد ليعطي لنا انطباعاً بأن سوندياتا لم يكن مسلماً، فهو يقول في هذا الشأن: (( فيما يخص إسلام ملوك مندن، وهذا قبل وصول سوندياتا إلى الحكم، يقال بأنه وجد ملك واحد كان مسلماً، ويتعلق الأمر بنياني منسا مامورو، وهو الشقيق الأصغر لسوندياتا، ولكنه كان يتخفى من خلال الاختباء في عمارته لتطبيق تعاليم دينه الجديد)).

نلاحظ من خلال هذه الرواية بأن "واكاميسوكو" يحاول أن يفيدنا بكلام غامض وغير دقيق، ويكتنفه الكثير من الأحكام المسبقة من أجل إقناعنا بادعائه. فهو عندما يتحدث عن ملوك مالي من المسلمين، قال "قبل وصول سوندياتا إلى الحكم" فهو بذلك يستثني سوندياتا، أو على الأقل فترة حكمه. فكلامه إذن يخص ملوك مالي قبل سوندياتا الذين ذكروهم المصادر الشفوية والمكتوبة على حد سواء، والذين يجمعون على أن أكثرهم كانوا مسلمين ( إن لم يكونوا كلهم)، وهذا منذ أن أسلم برمندانه كما رأينا سالفاً.

ويواصل واكاميسوكو أحكامه الجزافية وغير المؤسسة عندما يقول في موضع آخر أن الرجل المالنكي لا يعتنق أبداً الإسلام بصفة حقيقية. وهو بذلك يطلق حكماً مطلقاً من خلال استعماله كلمة أبداً، بدون أن يطلعنا على سبب وصوله إلى هذا الحكم. كما نجد في موضع آخر كلام ليوسف تاتا سيسى (Youssouf tata cissé). وهو شريكه في هذه الدراسة، والمعلق على الكتاب. يشير فيه إلى نفس الاتجاه عندما يعلق على كلام الرحالة المغربي ابن بطوطة بخصوص إسلام سوندياتا، فابن بطوطة يذكر بأن جد منسا سليمان وهو سارق جاطه (ماري جاطه) قد أسلم على يدي شخص يسمى مدرك بن فقوص. فبينما نقل موريس دولافوس هذا الكلام معتبراً بأن سارق جاطه هذا هو نفسه ماري جاطه أو سوندياتا، نجد أن يوسف تاتا سيسى يقول بأن هذا الكلام لا يخص سوندياتا وإنما يتعلق الأمر ربما بملك آخر يسمى "منسا سيريكى جاتا" المعروف بأبي بكر

صديقي، وهو ابن أخت سوندياتا. لكننا عندما بحثنا في مصادر أخرى عن الاسم الثاني لأبي بكر هذا لم نجدده.

لهذا فإننا نرى بأن سوندياتا كان مسلما كبقية الملوك المنحدرين من عشيرة كيتا، والذين تعاقبوا على عرش مالي بعد برمندانه، لكنه لم يكن من طراز الملوك الذين يحكمون باسم الخلافة الإسلامية، أو ذلك الخليفة الرافع لراية الجهاد في سبيل الله، ولم يعط الانطباع بأنه ذلك الملك الورع التقى. أي أن إسلامه لم يتخذ طابعا سياسيا، ذلك أن قضية أسلمة بلاد السودان كما نعلم كانت بطريقة تدريجية وقامت على عاتق التجار بالدرجة الأولى، وخاصة التجار الاباضيين، لذلك مست الطبقة الأرستقراطية من أمراء وملوك وكبار التجار والنبلاء الذين وجدوا في اعتناق الإسلام سبيلا للرفعة والمكانة الاجتماعية، لما كان يمثل المسلمون من مكانة في المجتمع السوداني، أو ما يجلبه من مصلحة مادية على أساس أنهم كانوا يمثلون الشركاء التجاريون لهذه الطبقة الارستقراطية من المجتمع السوداني. كما مس الإسلام أيضا طبقة العبيد الذين كان يمثل اعتناق الإسلام بالنسبة إليهم وسيلة للتخلص من العبودية والاسترقاق.

بينما بقيت الطبقات الاجتماعية والحرفية الأخرى وفيه لوضعها القدم وديانتها الوثنية، لأنها مبنية على أساس عقد ابتدائي مع الجن أو الطوطم الخاص بالعائلة، كما بقيت طبقة الرواة وطبقة الحدادين على وثنيتهما.

وعموما فإن إسلام الملوك الأفارقة بصفة عامة، وملوك مالي بالتحديد، كان في غالبه إسلاما سطحيا ولم يظهرها حماسا مفرطا في حمل الناس على اعتناق هذا الدين الجديد إلا في حالات استثنائية جدا سوف نراها لاحقا مع منسا موسى وهو أحد أحفاد سوندياتا. لهذا يمكن أن نقول بأن نظام الدولة في عهد سوندياتا كان لائكيا، ولم يكن الملك يدمج بين وظيفته كحاكم للبلاد وبين ديانته الإسلامية، بل وفي كثير من الأحيان كان يتلقى ضغطا من طرف أتباع الديانات التقليدية الوثنية، خاصة أثناء حربه مع سومنغورو وما كانت تتطلبه تلك المرحلة وتلك الحروب من طقوس بالنسبة للوثنيين.

ومما يبين وجود صراع خفي بين سوندياتا وأتباعه المقربين من المسلمين، وبين الطوائف الأخرى من الوثنيين هو ما حدث بعد وفاته، وخاصة خلال مراسيم دفنه، حيث قام أحد نبلاء مندن المقربين من سوندياتا وهو "موسى أوموري" المعروف بإسلامه وتدينه، والذي عاش لفترة في مكة المكرمة. ولقد أراد هذا الرجل أن يدفن الملك حسب تعاليم الشريعة الإسلامية، كما حرص على أن لا تتم عملية الدفن إلا بعد إلقاءه كلمة تأيينية تخللها مواعظ دينية وصلاة الجنازة، وهو ما جعل بعض رؤساء العشائر المندية الوثنية المنتمية إلى طوائف أخرى إلى معارضة هذه المراسيم، وادّعوا بأنها غريبة عنهم رغم أنه جرت العادة على أن لا يدفن الموتى إلا بالمراسيم الاسمية التي كان يتولاها موسى هذا. فلهذه الأسباب لم يكن سوندياتا يظهر حماسه الديني الإسلامي، بل كان يحرص على إظهار تسامح كبير مع الديانات الأخرى، مما فتح في اعتقادنا مجالا واسعا لإثارة الجدل حول حقيقة إسلامه.

### ثانيا . مجهودات سوندياتا في بناء الإمبراطورية:

لما استقر سوندياتا في ميمما أخذ يعيش حياة بسيطة هادئة بعيدة عن أهل مندن، حيث كان يمارس مهنة أجداده وهوايته المفضلة وهي الصيد، ويتمتع بحب أهل ميمما وتقدير ملكها. وبينما هو كذلك حتى قام سومنغوروكانتي بغزو بلاد مندن للمرة التاسعة في عام 1200م، بعد ثمان غزوات سابقة واجهها المليون بمقاومة مستميتة، لكن هذه المرة كانت الغزوة كاسحة، وأعد لها ملك الصوصو قوة كبيرة لم يكن بإمكان أهل مندي الصمود إمامها. وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام تضارب الروايات الشفوية المحلية، في غياب المصادر المكتوبة. فبعض هذه الروايات التي تكتسي طابع الملاحم التاريخية تقول بان سومنغورو قام بقتل أخ سوندياتا غير الشقيق (منسا دنكران تومان) وإخوته العشرة الذين تعاقبوا على عرش مندن في ظرف سنة واحدة.

لكننا نشك في دقة هذه الروايات ومصداقيتها، على اعتبار أن حالة الذعر والفوضى والدمار التي أصابت بلاد مندي عموما ومدينة كنگابا أو (داكجالان) العاصمة خاصة، لم تكن تسمح بإتمام إجراءات نقل السلطة، وتنصيب ملك جديد خلفا لآخر في كنگابا، خصوصا إذا ما صدقنا الروايات

الشفوية التي تقول بأن سومنغورو عندما شن هجومه التاسع على العاصمة حدثت هناك حالة خراب وفرار جماعي لكل سكانها.

كما أن سومنغورو استقر خلال هذه الغزوة في كنگابا لفترة معينة قبل أن يعود إلى مملكته. وبالتالي فمن غير الممكن في ظل هذه الظروف أن يكون هناك مجال للتداول على السلطة بين أبناء الملك ناري فاماغان. ومن هنا يمكن أن نقول بان الرواية الأقرب إلى المنطق هي تلك التي تقول بأنه بعد الهجوم الذي شنته قوات سومنغورو على مملكة مندن، واستيلائها على البلاد، فإن كل أمراء المملكة هربوا وتركوا إماراتهم، بدء بشقيق سوندياتا الملك منسا دنكران تومان الذي ترك كنگابا، ولجأ إلى إحدى الغابات، واستقر فيها.

هنا لجأ بقايا المقاومين المنديين إلى عملية القرعة وإلى رمي حجرات الحظ التي كان يشتهر بها الصيادون المالنكي، وهي طريقة لاستشراق الغيب، وضرب من ضروب التنجيم، فخلصوا إلى رأي واحد وهو (( أن الرجل الذي غادر مندن منذ مدة طويلة متجها إلى المنفى، هو الذي يمكن أن ينقذ البلاد، وأنه إذا لم يذهب أهل مندي للبحث عنه فإن سومنغورو سيستولي على ما تبقى من أشياء ثمينة في مندن خلال حملته المقبلة.)) وهنا قدم احد إخوة سوندياتا، وهو أخوه الصغير المدعو " فوفانا كيتا" إلى ميمما وطلب منه الرجوع إلى مندن لإنقاذه من قبضة الصوصو بعدما عينه مجلس قدماء مندن كمتحدث باسمهم.

وتقول الروايات الشفوية الخاصة بالمالنكي أنه خلال هذه الفترة وقعت حادثة تزامنت مع غزو الصوصو لبلاد مندي، وهي وفاة والدة سوندياتا وذلك عام 1222م، فطلب منه ملك ميمما "فاران بورما تانكران" أن يدفع ثمن التراب الذي ستدفن فيه أمه بميمما. وهنا أدرك سوندياتا فظاعة العيش المرء في المنفى بعيدا عن وطنه، فازداد إصراره على استرجاع وطنه المعتصب مهما كلفه ذلك من ثمن، وقرر العودة إلى بلاد مندن.

## 1. مجهودات سوندياتا العسكرية:

أ. استعداداته لمحاربة ملك الصوصو:

عندما كان سوندياتا لاجئا في ميمبا كانت قوات سومنغورو تعيث في بلاد مندية قتلا ونهباً، بينما خيب الملك منسا دنكران تومان شقيق سوندياتا أمل المنديين الذين ولوه أمر قيادة جيشهم لمواجهة قوات الصوصو، وذلك بهروبه أمام المسؤولية التاريخية الملقاة على عاتقه، ولجأ إلى الغابات الجنوبية تاركا المكان شاغرا. لذلك لم يكن أمام شعب الماندينغ من حل سوى الاستنجاد بسوندياتا كيتا الذي لبي دعوة الوطن، وبدأ يعد العدة للحرب التي أصبحت حتمية ضد المحتلين الصوصو. فأخذ يتشكل جيش من مختلف الإثنيات التي يتكون منها شعب الماندينغ، والناقمين هم أيضا على ملك الصوصو.

وتقول الروايات الشفوية بأن سوندياتا قصد من أجل ذلك عدة إمارات ومقاطعات مندية للحصول على المدد والرجال بعدما عبأ أصحابه في المهنة من الصيادين ورفقاء الطفولة وشحنهم.

وكانت أول مقاطعة زارها هي سنكران، وهي بلاد أخواله، فنزل عند ملكها الذي يدعى سنكران دانكينيا كونتي (Sankaran Dankinya Konté). وبعد إقامته مدة من الزمن سأله هذا الملك عن سر مجيئه إلى سنكران، فأخبره سوندياتا بنيتة في الحصول على جيش لمحاربة سومنغورو، فمنحه ملك سنكران جيشا وبعدها توجه إلى كيرينا ونزل ضيفا على زعيم البلاد الذي يدعى طارا مغان تراوري (Tara maghanTraoré) أودامبيلي (Dembélé) وهو جد المبار الذي أجابه إلى طلبه، وزوده بجيش من أهل كيرينا. ثم مر بإمارة كينتو الواقعة على الضفة اليمنى للنيجر، وزوده ملكها سورا موسى (Soura moussa) والملقب بسيسوكو (Sissoko) بعدد من الرجال، ثم عرج على قرية لابي في منطقة فوتا جالون التي دعا زعيمها تابو (Tabou) سكان القرية للتطوع في جيش سوندياتا فأجابوه. ويبدو أن انضمام سكان تلك الإمارات إلى جيش سوندياتا، وتحمسهم إلى الحرب تحت قيادته، تعود إلى تلك الشهرة وذلك الصيت الذي أذيع عن شجاعة سوندياتا وتحمسه للتخلص من ملك الصوصو.

وتأكيدا لشجاعة سوندياتا، وتبريرا لأحقته بتزعم هذا الجيش، فإن الروايات الشفوية بينت لنا الكيفية التي عن طريقها عين سوندياتا قائدا على جيش المندي، حيث لما اختلف الجنود حول هوية من يقودهم في تلك الحرب، تقدم شيخ مسن وحكيم واقترح عليهم إذابة الرصاص داخل إناء، ومن

يتمكن من إدخال يديه داخل هذا السائل يكون قائدا. فلم يستطع أحد باستثناء سوندياتا القيام بذلك، وبالتالي أصبح قائدا للحملة. لكننا نعتقد بأن الجنود الذين هبوا لنصرة سوندياتا وتطوعوا في جيشه، لم يكونوا بحاجة إلى هذا الامتحان لتوليته قائدا عليهم، وأن شخصية سوندياتا كانت تحظى بإجماع كل شعوب المندي كقائد وزعيم لهم. لهذا فإننا لا نرى بأنه كان يشكل موضع خلاف بين الجند حول القيادة، وبذلك يمكن أن نقول بأن هذه الرواية لا تعدو إلا أن تكون من الأشياء التي أضيفت للمحمة سوندياتا لتضفي عليه صبغة البطل الخارق، والشخص المتفوق على بقية البشر.

ومهما يكن فإن الجيش الذي جمعه سوندياتا كان يضم بالإضافة إلى الصيادين المالنكي محاربي السوننكي والكاكولاس والهوسا والفلاته والمور وغيرهم. كما انظم إليه النبلاء والأغنياء والتجار من كل المدن الكبرى في غانة، والذين زودوه بالخيول والأسلحة و المؤونة. فلقد كانت تعبئة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البلاد، وذلك نظرا لفداحة الظلم الذي ارتكبه سومنغورو في حق سكان مندن، إلى درجة لم يسلم أي أحد من بلاد مندن من بطشه ودماره. وبذلك تشكل جيش تحرير مالي، الذي حمسه ودربه سوندياتا لعدة أيام قبل أن يقوده باتجاه مندن.

وقبل أن يتوجه به إلى مندنقام سوندياتا بتقسيم الجيش حسب انتمائهم الطائفي، العشائري والجهوي، ما عدا الصيادين الذين شكلوا كتلة واحدة. بعدها شق سوندياتا وجيشه طريقهم إلى مندن. وقد حظيت مسيرة سوندياتا وجيشه من ميمبا إلى موطنه الأصلي بمندن باهتمام كبير من طرف الرواة ومنشدي الملاحم الأفارقة، ونجد هناك روايات مختلفة حول هذه الرحلة وما حدث الطريق. لذلك حولنا أن نقل الروايات الأقرب إلى المنطق، ما دام أن المصادر المكتوبة بخصوصه تعوزنا.

تقول بعض هذه الروايات أن سوندياتا قد مرّ في طريقه إلى مندن بقرية كوليكورو (Koulikoro)، حيث ضحى فيها بقرايين في جبال نياني - كولو (Niani-Koulou)، بعدها توجه إلى هضبة باكوني والتي تمثل المدخل الرئيسي لمندن من جهتها الشمالية أين توقف الجيش لمدة أسبوع من أجل تقديم الذبائح والقرايين للجن والآلهة التي تزخر بها المنطقة، بالإضافة إلى استغلال الفرصة لإحياء بعض المراسيم والطقوس الخاصة بالحرب.

وخلال الليالي الأخيرة التي أقام فيها الجيش في هضبة باكوني، نظمت على شرف سوندياتا سهرات كبيرة قام خلالها الرواة والمنشدين المرافقين للزعماء الصيادين بترتيل الأناشيد الحماسية، وألقى فيها قادة الجيش خطابات حماسية لشحذ همم الجند قبل أن يصل السيمبو إلى مندن.

بعدها توجه سوندياتا وجيشه إلى مندن، ولما رآه أهل مندن هبوا لاستقباله، واحتفلوا بعودته إلى كنگابا. وبعد الانتهاء من مراسيم الاحتفال والاستقبال، سأل سوندياتا عن الراوي الخاص بعائلة كيتا وهو بالا فاسيكي (Balafasséké)، فأخبروه بأنه ذهب إلى قصر سومنغورو كاتي ليتوسل إليه في طلب الهدنة معه. لكن سومنغورو عندما التقاه غدر به، وقطع وتر رجله وأذله. ولما سمع سوندياتا بهذه الحادثة، وما جرى لبالا فاسيكي على يد سومنغورو، أرسل إليه مبعوثه الخاص وهو "ووري ووري سولوماني" ليخبره بأن سوندياتا قد عاد إلى وطنه، وأنه قادم لإعلان الحرب عليه، ويطلب منه أن يخلي سبيل الراوي الخاص بالعائلة. وبذلك أعلنت الحرب بين الرجلين وبين مملكتين مالي والصوصو.

#### ب. معركة كيرينا:

لما علم ملك الصوصو سومنغورو باستعدادات سوندياتا والمالنكي لمحاربتة، انتقل من مقر إقامته في نياني قرب نيامينا، وتوجه إلى منطقة تونينا التي كان يعتقد بشأنها السوننكي بأنها مقر تواجد حراس الملك من الجن. بعدها توجه إلى نيامانكو Niamanko، وهو معسكر كبير خاص بتدريب الحدادين الشباب فنون الحدادة والتعددين، وهناك قام بتشكيل جيش احتياطي يتكون من أربعين ألف جندي من الشباب.

أما سوندياتا فقد اعتمد على جيش مكون من مختلف العشائر والإثنيات، وأوكل مهمة قيادة تلك الجيوش إلى قادة يثق فيهم كثيرا، وهم أترابه ورفقاء الطفولة أمثال "تابون وانا" الذي كان رئيسا لفرع الكامارا، وابن عمه "كاماديان" من آل كامارا الذين يقطنون سيبي. كما اعتمد على قادة أقوياء أمثال فاووني كونديه، سياراركوومان كوناته وتيراماكان تراوري. والتقى الجميع بسوندياتا في سهل سيبي حيث تولى بنفسه إدارة العمليات.

وكان أول هجوم على جيش الصوصو قامت به قبائل الكامارا المتواجدة على الضفة اليمنى لنهر النيجر، والتي يقودها الملك "كارا نورو" وكان ذلك في عام 1234م، حيث هجمت على المراكز الأمامية لجيش الصوصو لكنه مني بهزيمة نكراء، وانتصر بذلك سومنغورو في أول اشتباك مع جيش سوندياتا .

ورغم أن الروايات الشفوية تذهب إلى تفسير هذه الهزيمة بعوامل سحرية تتعلق بتمتع سوندياتا بقوى سحرية تحول دون إصابة جسمه بالأسهم أو الحديد، إلا أننا نعتقد بأن أسباب هذه الهزيمة تعود إلى عوامل موضوعية تتعلق بمعطيات هذه الحرب وظروفها ومستجداها، والتي يمكن أن نلخصها في ما يلي:

**أولاً:** خبرة جيش الصوصو وحنكته الحربية، وكذا انسجام جيشه وقوته إذ تفوق على حداثة جيش سوندياتا الذي كانت تعوزه الخبرة. فهو جيش فتيّ مكون من عدة عشائر وإثنيات غير منسجمة، ولم يسبق لها خاضت حرباً مع بعضها من قبل، ويقودها شاب يتقد طموحا وتحذوه إرادة وحماس كبيرين، لكن تعوزه الخبرة.

**ثانياً:** اعتماد جيش الصوصو على قائد محنك وقوي، وهو "فاكولي دومبيا" أو (فاكولي كانكوبا كاسيا كانتى)، وهو ابن أخت سومنغورو ويعد من أفضل قادته، ومن أقرب المقربين إليه والذي اعتمد في هذه الحرب على خيانة زوجة قائد جيش الكامارا منسا كارانورو، التي استطاع فاكولي استدراجها فسلمت له زوجها بعدما شعر فاكولي بأنه من الصعب التغلب على جيش الكامارا المدرع بالحديد والمستमित في القتال.

لقد أقام سومنغورو بعد ذلك الأفراح والاحتفالات بمناسبة هذا النصر الذي لم يكن في الحقيقة نصراً نهائياً، ذلك أن سوندياتا بدأ فعلاً بالتحضير للمعارك الحاسمة ضد الصوصو، فكانت البداية بمعركة كيرينا التي استفاد فيها من أخطائه السابقة. وكان أول عمل مهد الطريق للنصر في معركة كيرينا لصالح جيش المالنكي هو انضمام قائد جيش الصوصو فاكولي إلى صف جيش سوندياتا مباشرة بعد انتصاره على جيش منسا كارا نورو. وسبب ذلك يعود إلى الاحتفال الذي أقامه خاله سومنغورو بمناسبة ذلك الانتصار، حيث تذكر الروايات الشفوية بأنه خلال هذا الاحتفال تمكنت زوجة فاكولي

من إعداد مائة طبق من الكل لوحدها، بينما عجزت زوجات سومنغورو وعددهن مائة امرأة من فعل ذلك، فأعجب ملك الصوصو بمهارة زوجة فاكولي الوحيدة، وطلب من ابن أخته أن يتنازل له عنها مقابل أن يختار واحدة من زوجاته المائة. فرفض فاكولي عرض خاله الغريب، وتمسك بزوجته. لكن سومنغورو الطاغية الذي لم يتعود على أن ترفض طلباته، أصر على طلبه، فخشي فاكولي من بطش خاله وغدره فقرر ترك معسكر الصوصو والهروب منه. فلجأ هو وجيشه إلى معسكر جيش سوندياتا، وعرض خدماته على هذا الأخير لكي يحارب إلى جانبه ضد الصوصو وملكهم.

كما حاول أن يأخذ معه أبناءه الخمسة إلى بلاد مندي وهم، كاماجان كامارا وهو البكر، كاميسوكو، باكاويكو، سيناويكو أو (سيناكا) وكوروما أو (دوميا) وهو أصغرهم. لكن سومنغورو لم يسمح لهم بالرحيل والالتحاق بأبيهم، فبقوا إلى جانب أمهم، وبذلك تدعم الحلف الذي شكل جيش مندن المتمركز في سيبى بجيش وقائد من طراز رفيع، وأضافا لهم نقاط قوة جوهرية في معركتهم القادمة والحاسمة في كيرينا. بينما فقد سومنغورو جزء مهم من جيشه وأفضل قادته، وبذلك فقد عنصر مهم من قوته.

وبالإضافة إلى هذا فإن قوات سوندياتا قد تدعمت بعامل مخبراتي مهم جدا هي أخته "نانا بيريتي" التي بعد الهزيمة الأولى لأخيها أمام سومنغورو، وما أشيع عن هذا الأخير من تمتعه بقوى سحرية تحميه من فقام سومنغورو بالزواج منها، فبقيت إلى جانبه تستميله للبوح بسر قوته وقوة جيشه. فتحولت بذلك إلى مخبر لجيش سوندياتا داخل قصر ملك الصوصو. و بالتالي تمكنت من معرفة سر القوة السحرية التي يتمتع بها سومنغورو، حيث تقول الروايات الشفوية بأن أخت سوندياتا لما تزوجت سومنغورو منعتة من ممارسة حقه الزوجي لمدة أسبوع كامل من زواجه منها، ولما ألحَّ في طلبه اشترطت أن يخبرها أولا بسر قوته السحرية حتى تتمكن من نفسها، مدعية بأن ذلك يثبت لها مدى ثقته بها، كما سيمكنها من الحرص على تجنب الأمور التي تضر به. عندئذ أخبرها سومنغورو بأن آل كوناتي الذي ينتمي إليهم، لا يمكن أن يُقتلوا إلا عن طريق خلط ريش ودم ديك أبيض، ثم غطس سهم بداخل هذا الخليط، ثم يرمي به نحوهم. فهذه الطريقة وحدها يمكن قتلهم، حتى وإن لم يخرج منهم دم إلا بمقدار ما تشربه بعوضة. كما أخبرها بأن هذا السهم الذي يقتلون به يجب أن يكون مصنوعا

من ظفر ديك أبيض، بالإضافة إلى ذلك هناك تعاويد وطقوس لا بد أن تقام لكي يهزم سومنغورو، وتتمثل في أخذ خمسة قضبان لنبات الدخن ثم دفنها في الأرض، بعد أن يذبح ثور أحمر كقربان وتُصنَع من دمه فطيرة يتم دفنها أيضا في الأرض، ثم تقلع جذور الفول اليابسة وتلقى داخل حصن سومنغورو.

بعدما علمت شقيقة سوندياتا بكل هذه الأسرار سمحت لزوجها بان يقترب منها، وبقيت معه لمدة ثلاثة أيام بلياليها إلى أن غلبه النعاس فنام نوما عميقا، فهربت من قصره واتجهت إلى معسكر سوندياتا فأخبرته بالسر الذي عرفته.

وتقول الروايات المخدلة لهذه الملحمة بأن سوندياتا أرسل من يأتيه بظفر ديك أبيض، وقام بإعداد الخطة اللازمة، ثم صنع السهم المطلوب لقتل سومنغورو. في حين أخبر سومنغورو من طرف منجميه بأنه سيقتل لا محال، وبأنه إذا أراد أن لا يقتله سوندياتا فعليه أن يقتل ابنة أخته. لهذا غضبت أخته وهربت هي الأخرى إلى معسكر سوندياتا، وأخبرته بدورها أيضا بالسر الذي يبطل سحر أخيها، وهو السهم المصنوع من ظفر الديك الأبيض، وبذلك تأكد سوندياتا من صحة المعلومة التي أخبرته بها أخته. وهكذا لم يبق أمام سوندياتا وجيشه إلا التهيؤ للحرب وإعداد الخطة اللازمة لمعركة كيرينا التي ستكون حاسمة.

إن موقع منطقة كيرينا التي احتضنت المعركة غير معروف بدقة، لأن مدينة كيرينا الحالية حسب الرواة الشفويين حديثة التأسيس. لكنها على ما يبدو لم تكن بعيدة عن بماكو الحالية، ومنطقة سبي التي احتشدت فيها قوات سوندياتا وعسكرت فيه. ولقد أعد سوندياتا خطته الحربية بناء على الأخبار التي جاءه بها جواسيسه من معسكر الصوصو، و مفادها أن قواتهم سلكت الطريق المحاذي للضفة اليسرى لنهر النيجر.

كان سوندياتا قد قسم جيشه إلى مجموعات حسب انتمائهم العشائري والطائفي، لذلك فقد أوكل لكل مجموعة مهمة خاصة في هذه المعركة على الشكل التالي: بالنسبة لجيش الصيادين المكون من عشيرة سوندياتا وأصدقائه وأهل مندي، والذي يقوده تيراماكان الذي يعد من أفضل قادة جيش سوندياتا، فقد تمركز بين أشجار غابة "كوتو" على طول نهر النيجر برفقة كلابهم المكمنة، وكانت

مهمتهم أن يطلقوا كلابهم على فرسان الصوصو عند بداية المعركة من أجل إسقاطهم عن صهوة جيادهم، وكذا قطع خط العودة عن مؤخرة جيش الصوصو، ومنعه من التوجه شمالا عن طريق إغراقه بالسهام المسمومة.

أما الجيش المكون من آل كامارا فقد كان متمركزا في منطقة سندوكو (Sendougou) في اتجاه جبال ماندينغ. وكانت مهمتهم تتمثل في الهجوم على العدو مع القيام بحركة طفيفة نحو الشمال من أجل الالتقاء مع جيش تيراماكان، حيث يشكل هذان الجيشان ما يعرف بالميمنة والميسرة، وكانوا مسلحين بالسهام والرماح والفؤوس والخناجر.

وبالنسبة للجيش المكون من فرسان واغادو أو (غانة) أي من عناصر سوننكية، والذي كان يقوده سوندياتا بنفسه، فلم يكن عليه إلا الهجوم على جيش الصوصو ومحاولة إنقاص عدده، وهو ما يعرف بصدر المعركة. وهناك جيشان آخران يعرفان بـ "تون - كورو - بيلاما" وتعني مؤخرة الرقبة، ويقودهما كل من نان كومان جان وفاكولي. واللذان يتشكلان من كبار الرماة والمشاة. فإنهم لا يفعلون أي شيء وإنما عليهم البقاء محتبئين في مخابئ تحت الأرض، والمعروفة عندهم بـ "تارابا"، داخل تجويفات الأشجار الضخمة، وداخل البساتين الكبيرة، ويتقلون بطريقة الصيادين. وقد طلب من قناصيهم أن يقتلوا أكبر عدد من قادة حرب جيش الصوصو، الذين كانوا يتميزون عن غيرهم بشعرهم الطويل.

أما جيش سومنغورو فقد كان جرارا حسب وصف الرواة الشفويون، بحيث كان يصعب تحديد عدده، إلى درجة أنه لما رآه سوندياتا ضنه سحاب قادم من الشرق.

وقد اختار سوندياتا هضبة "ساما لن" ذات السطح المستوي كمكان للالتقاء وتجمع جيشه، وكان هاجسه الأول هو قطع الطريق أمام جيش الصوصو لمنعه من العودة إلى الشمال، وزحف الجيشان إلان التقيا في كيرينا حيث بدأت المعركة منذ الصباح وكانت دموية حيث دامت يوما كاملا، وتقول الروايات بأنه أثناء المعركة ألقى سوندياتا صرخة مدوية في جيش سومنغورو دفعت جنوده إلى الاختفاء وراء قائدهم، فرد عليه سومنغورو بصرخة مماثلة. وفي خضم هذه المعركة، ولما أصبح الوقت عصرا دون أن يتحدد المنتصر، وكانت المعركة متكافئة، حاول الرماة الفلاته التابعين لجيش سوندياتا

إنهاء المعركة لصالحهم قبل أن تغرب الشمس، فعمدوا إلى القيام بعملية اقل ما يقال عنها أنها ارتجالية وانتحارية وغير محسوبة العواقب. حيث قاموا بالإلقاء بأنفسهم على جيش الصوصو دفعة واحدة لكنهم وقعوا في أسرهم، فوضعوا سوندياتا أمام موقف حرج حيث اضطر لدفع ضرائب باهظة من اجل تحريرهم. وهنا دقت الطبول من الجانبين معلنة عن بداية هدنة تسمح لكلا الطرفين بمعالجة جرحاهم، و دفن موتاهم. وفي المساء اجتمع سوندياتا بأصحابه وأخبرهم بأن الأمور الجدية سوف تبدأ مع غروب الشمس.

وبالفعل فمع غروب الشمس بدأ جنود الصوصو يتوجهون من خلال فرق صغيرة نحو جبال ماندينغ سالكين ممرات ضيقة ووعرة، مدفوعين في ذلك بضغط المعركة. ولما اشتد وطيس المعركة، وتأكد سومنغورو باستحالة تراجعهم نحو الشمال قرر التوجه إلى نارينا أين كان من المنتظر أن يلتحق به جيش من المتطوعين المكون من حدادي منطقة بامبوك، ومن فلاته منطقة فيلادوغو (فولادوغو)، وهنا صرخ سوندياتا قائلا: ((لقد أنقذنا مندن)) و يتقن بأن رياح المعركة بدأت تهب في صالحه، لذا أمر بمطاردة العدو. وكان جيشه خلال تلك المطاردة يردد كلمة النظام ويتداولها وهي: ((كل واحد يبقى وراء قائده، ولا يجب القيام بأي عمل ارتجالي أو انتحاري)). فلقد كانت تجري تلك المعركة في الظلام، فهي حرب الليل التي تجري لأول مرة في تاريخ مندن، كما أنها كانت حربا دموية أمعن فيها صيادو تيراماكان في التقتيل في صفوف جيش الصوصو، حيث حاصروهم وباغتوهم وأبادوهم عن بكرة أبيهم. خاصة بعدما قال لهم سوندياتا: (( لا شفقة ولا رحمة بمن أذلوا وأحزنوا المندن أكثر من مرة.)) وفي ساعة متأخرة من الليل توقفت جيوش مندن عن ملاحقة جيوش الصوصو الفارين إلى نارينا، وتمركزوا في منطقة كري (Kri)، وهي قرية قديمة تقع في مرتفع، وذلك لمراقبة أي هجوم مفاجئ من طرف الصوصو.

في نفس الوقت، وذلك من اجل الاستعداد الجيد لملاحقة جيش الصوصو في نارينا. وفي صبيحة اليوم الموالي عندما دخلت قوات الصوصو إلى قرية نارينا، علم سومنغورو بان المعركة ستقوم على أرضها، وأنها ستكون المعركة النهائية و الفاصلة.)

ج. معركة نارينا:

بعد فرار سومنغورو وجيشه من كيرينا، أصبحت قرية نارينا وجهتهم الجديدة، و ميدان المعركة المقبل. لذلك قام قادة الحرب المالنكي بالإسراع في توجيه فرقة عسكرية مكونة من 400 جندي إلى نارينا من اجل منع الجنود الصوصو من الخروج منها إلى غاية وصول بقية الجيش. وفي صباح اليوم الموالي قام سوندياتا بتوزيع قواته العسكرية بالطريقة التالية:

أرسل فرقة بقيادة تيراماكان باتجاه الشرق أين يوجد نهر السنكراني، بينما تشكلت الصفوف الأولى للجيش من فرق الهجوم الكاسح أو ما يعرف اليوم بمصطلح الكومندوس أو فرق التدخل، والتي قام بقيادتها هو بنفسه، وتدعمها الأذرع الثلاثة المتمركزة في نارينا ويقودها نان كومان جان. أما في الورا فقد تمركزت القوات التي كان يقودها فاكولي، وكانت مهمتها تتمثل في منع قوات سومنغورو من التوجه نحو كيلوكورو بأي ثمن.

وعندما بدأت المعركة راح قادة جيش مالي يبحثون عن سومنغورو لقتله، لأنه كان بالنسبة إليهم الهدف الأسمى من هذه الحرب. لكن الأمر لم يكن بالسهولة التي تصورها المنديون، لأن سومنغورو حرص على ارتداء لباسا مشابها للباس قاداته، كما تشبه بهم من خلال إطلاق شعره، وهو ما صعب عملية التعرف عليه وتمييزه عن قاداته. وقبل منتصف نهار ذلك اليوم الذي اندلعت فيه معركة نارينا، تبين بأن مسارها أصبح يميل لصالح جيش سوندياتا، بعدما أنهك جيش الصوصو بسبب الضربات الموجعة لجنود القادة كومان جان وكامان جان كامارا، بالإضافة إلى جنود القائد تيراماكان وصياديه المرفوقين بكلاهم.

وقد حرص هؤلاء على التواجد في صراعات فردية مع نظرائهم من قادة جيش الصوصو الذين كان عددهم يقدر بضعف عدد قادة المندي، وفرقهم وعدد جيشهم أكبر أيضا. لذلك كان كلما قتل قائد منهم يقوم بتعويضه قائد آخر محاولا استغلال تعب عدوه من المندي. ورغم براعة قادة جيش الصوصو في الصراعات الفردية، وتفوقهم من حيث التسلح، إلا أن قادة المندي تفوقوا عليهم، وبذلك فقد جيش الصوصو معظم قاداته، فما إن حل الظلام ولم يعد هناك إلا نور القمر، حتى فقد جيش الصوصو تركيزه وانسجامه، واضطربت جنوده كليا، وقرروا التوقف عن القتال والاستسلام.

بينما فضل البعض الآخر الانتحار رافضين فكرة التعرض للأسر من طرف جيش سوندياتا. أما الآخرون فقد سلكوا طريق الهروب طمعا في الخلاص من أتون المعركة.

وهكذا انهزم جيش الصوصو في هذه المعركة النهائية، ولم يبق من قاداته إلا ثلاثة فقط وهم: الملك سومنغورو كانتى وأخوه صوصو بالا (Sosso bala) ، وقائد آخر هو القائد الرهيب وروصو دابا (Worosso daba). فبينما القي القبض على القائد وروصو دابا، فإن سومنغورو وأخاه لم يتم العثور عليهما وفرا تحت جناح الظلام، وأخذوا معهما ثلة من أفراد عائلتهما وسلكا طريق الشمال الشرقي.

وتقول الروايات الشفوية بأن سوندياتا عندما علم بخبر فرار سومنغورو صاح في قاداته قائلا: ((فاكولي وأنا سنتبع سومنغورو إلى غاية أن نقبض عليه ثم نعود إليكم إلى نارينا)).

وقد توجه سومنغورو إلى أول مدينة تلي نارينا وهي قرية بونفان (Bonfan) ، حيث لجأ إلى البائع الوحيد في هذه القرية واشترى منه حصانا جديدا بدلا عن حصانه المتعب، كما اشترى ثيابا جديدة و طعاما مقابل حفنة من ذهب التبر. وكان سوندياتا ومرافقيه يتعقبون خطواته إلآن وصل إلى نهر جوليا، حيث وجدوا سومنغورو يتهيأ لقطعه، ومنه سلكوا الطريق باتجاه غابة كيلوكورو، حيث أخبرهم صيادو البوزو بوجهتهم بعدما استأجر قريهم لعبور النهر، وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام كم هائل من الروايات والأساطير التي تذكرها الملاحم الخاصة بآل كيتا وسوندياتا. فبينما تذهب بعضها إلى القول بأنه بمجرد أن لحق سوندياتا وأصحابه بسومنغورو في منطقة كوليكورو الغابية حتى تحول هذا الأخير إلى صخرة صماء.

هناك روايات أخرى تقول بأن سوندياتا وجه لسومنغورو ضربة بسهم مصنوع من ظفر الديك الأبيض مثلما أخبرته به أخته، وإذا بسومنغورو يختفي عن الأعين دون أن يتمكن أي أحد أن يعرف ماذا حصل له، ولم يبق منه إلا سواره المصنوع من الفضة الذي سقط على الأرض.

ومنذ ذلك الحين نبتت شجرة البابوا داخل ذلك السوار الذي ما يزال أثره قائم إلى اليوم. حيث يوجد في منطقة كيلوكورو الحالية شجرة البابوا وفي قاعدتها تحمل آثار خنق ينسبها الرواة إلى تلك

الحادثة. وفي رواية أخرى نجد انه لما رأى سوندياتا بدأ سومنغورو يجري باتجاه الجبل حيث اختفى في ذلك الجبل. ولو أن كل هذه الروايات تحمل طابعا أسطوريا يصعب تصديق حداثتها، إلا أن الشيء الذي نستخلصه منهما أن سومنغورو تمكن من الإفلات من قبضة سوندياتا وجنده، ولم يتم العثور عليه، وهو المصير الذي لم يكن ليتقبله المانديون، وهم الذين كانوا حريصين على أن يقع سومنغورو بين أيديهم حتى ينتقموا منه. لذلك فقد ذهب رواتهم إلى ربط عجزهم في القبض عليه بالقوي السحرية التي كان يتمتع بها ملك الصوصو. لكن وهما يكن فإن سوندياتا بعدما هزم جيش الصوصو وأزال إمبراطوريتهم، وألحقها بمملكة مالي، وضم كل المقاطعات والإمارات التي كانت تابعة لهم).

#### د . توحيد بلاد مندي:

بعدما انتصر سوندياتا على الصوصو واستحوذ على الأقاليم التي كانت خاضعة لسومنغورو كاتي، وخرب أرض الصوصو، وأخضع سكانها الذين تحولوا إلى عبيد له. تحول إلى زعيم إمبراطورية واسعة، خاصة بعدما أخضع كل الممالك الواقعة شمالا مثل سانساندينغ، ديا ديورة و باسيكونو. ووصل إلى غاية الأوكر حيث ضم غانة، لكنه لم يصل إلى ولايته احتراماً لأهلها وعلمائها المسلمين، قبل أن يعود إلى الجنوب. بعد ذلك قام زعماء قبائل الماندينغ بتنصيبه إمبراطورا عليهم. وخلال حفل التنصيب خلع سوندياتا لباس الصيادين، وظهر في المنصة الشرفية أمام الزعماء لاستقبال آيات الولاء والطاعة بلباس المؤمن الذي يتمثل في عباءة بيضاء). لكن سوندياتا كان يدرك جيدا بأن زعامته لإمبراطورية مالي ( أو مندن ) لا بد أن تمر عبر توحيدها، حيث صرّح أمام الجماهير الغفيرة التي استقبلته بعد حربه مع الصوصو قائلا: (( يجب أن نجعل من مندن بلدا موحدا كما كانت واغادو(غانة) أي متضامنة مثل أصابع اليد الواحدة، ذلك أن أصبعا واحدا لا يستطيع مسك حجرة لوحده وبتناسق مثلما هو الحال أيضا بالنسبة للأسنان واللسان والفم)) لهذا دعا سوندياتا إلى إشراك الجميع في إدارة البلاد، كما دعا كل أمراء مندن إلى القدوم إلى الجمعية العامة التي أقامها لتقرير مصير مندن، والتي عرفت باسم جيكول-أوكيلن (Djekoul-Oukelen) ودعاهم إلى شرب الديغي (Dégué) باسمه.

ومشروب الديغي هو حساء مصنوع من خليط الأرز والدخن والعسل والحليب، حيث يعتبر شربه بمثابة رمز للعهد أو التحالف مع من شرب باسمه، وهو بمثابة إعطاء كلمة الشرف للملك وإبداء الولاء والطاعة له. لكن بعدما حضر زعماء مندن لشرب هذا الحساء كتعبير منهم على موافقتهم على اعتلائه منصب منسا (أو الملك)، قرر الكثيرون منهم التراجع عن القسم وأداء اليمين وهو الوعد الذي قدموه لسوندياتا. وزعموا بأن هذا الأخير قد ولد البارحة القرية (أي صغير في السن) فكيف يصبح ملكا، وكيف لهم أن يجلسوا في مجلسه الملكي، ويسمحوا له بأن يقرر أمورهم؟. ولقد كان من هؤلاء الأمراء الأوائل الذين تمردوا أولا على سلطة سوندياتا الأمير "كولا ماسا دن تورومي ( Kola Massa den touroumé) والذي يعني اسمه تورومي ملك الكولا، وهو ينتمي إلى عائلة فاكولي. وقد رفض القوم إلى اجتماع سوندياتا، وطلب منه أن يأتي بنفسه إلى إمارة كولا، ويعبر النهر. وهناك الأمير "ديغي ماكان ديغي (Digui Makandigui) الذي رفض الإيفاء بعهده بعدما أدى القسم، حيث رفع صوته عاليا أمام سوندياتا مصرحا بأنه يرفض سلطته بحجة أن هذا الأخير ترك جنود سومنغورو الراضين القوم إلى داكاجالان (كتغابا) بالرحيل، لذلك قال بأنه هو أيضا لا يريد القوم إلى داكاجالان. أما الأمير الآخر الذي أعلن تمردفه فهو نياني ماسا كامارا (Niani massa kamara) الذي أعلن استنكاره ورفضه لسلطة سوندياتا، وصرح قائلا: (( ما هو السبب الذي يجعلني أقبل سلطة داكجالان عليّ ؟

إن ماغان سوندياتا كان ولدا عندما كنت أتربع على عرش المملكة، أي أنني أول من ملك مندن، وأول من سكنه، فلا أحد سبقني إلى هذه الأرض، فلا يحق لسوندياتا أن يعلن نفسه ملكا ويستدعيني إلى قصره لأتلقى أوامره مجرد أن طرد جيوش سومنغورو، فلن أذهب أبدا لتلبية دعوته)). وعندما بلغت إلى مسامع سوندياتا هذه الأوضاع صاح قائلا: (( إننا أقواس دون رماة، وإنهم رماة دون معلم)) في إشارة إلى أن سوندياتا يوجد في وضعية الزعيم الذي يملك الكثير من الأسلحة لكن بدون رجال يستخدمونه. أما هؤلاء الأمراء المتمردون فإنهم يشبهون الجنود الذين لم يجدوا قائدا يوجههم ويضبط أمورهم. فأجابه القائد فاكولي بأنهم ينتظرون أوامره لتنفيذها، وهنا قام سوندياتا بإعداد خطة لإخضاع المندن ككل، وتقوم على محاصرة القرى المشهورة بقوتها وانتمائها إلى نفس العشيرة في نفس اليوم ونفس الساعة، وحرص على أن تكون قوات مندن قرية من بعضها البعض.

وبذلك فقد تمكن القائد تيراماكان من إلقاء القبض على كولا ماسا دن تورومي، قبل أن يطلب هذا الأخير المنفى، حيث غادر مندن وتوجه إلى بندوغو (Bendougou) الواقعة على الضفة اليمنى لنهر باني، وأسس هناك قرية ما تزال موجودة إلى اليوم تحت اسم تورومي لا أي (عند تورومي). كما ألقى القبض على الأميرين "ديغي ماكان ديغي" و"كولن ماسا توروكيلن" وقدمهما لسوندياتا، أما أمير آل كامارا نياني ماسا كامارا فقد قبض عليه القائد فاكولي و قتله.

واستكمالاً لعملية توحيد المندن، ومن أجل إضفاء نوع من القداسة على تلك العملية، قام سوندياتا كيتا بزيارة مدينة كيتا وذلك لتحقيق عدة أهداف وغايات تتمثل أولاً في محاكاة العظماء وقادة الجيوش والملوك في السودان الغربي الذين كانوا دائماً يطهرون أنفسهم، ويصلون من أجل رخاء وعظمة بلدانهم منذ عهد سحيقة، وذلك عن طريق الاستحمام في مياه منبع موكويا - جي (وتعني ماء الشخصية) والموجودة في الجبال التي تقع فيها مدينة كيتا. أما الهدف الثاني لهذه الزيارة فهو التقرب من آل كامارا وكسب رضاهم، بحكم أن هذه المنطقة يتزعمها آل تونكارا وهم حلفاء رجال الدين من آل كامارا عن طريق المصاهرة. وبما أن آل كامارا يعدون أقدم من سكن هذه البلاد، فإن دعمهم لسوندياتا سيكسبه قوة أكثر.

ونشير هنا إلى أن الإسلام قد لعب دوراً جوهرياً في توحيد قبائل الماندينغ، وذلك لخصوصية هذا الدين الذي ينزع إلى الطابع الإنساني، البعيد عن الحدود القبلية الضيقة التي رسمتها الأعراف والتقاليد الوثنية، ولا أدل على ذلك ما تذكره الروايات الشفوية من أن عائلة تونكارا التي احتضنت سوندياتا في ميمما عندما كان في المنفى، كانت أسرة مسلمة.

وبالإضافة إلى ذلك نجد بأن سوندياتا عندما زار كيتا، فقد كان برفقة عدد كبير من الفقهاء ورجال الدين، فضلاً عن النبلاء والفرسان والرماة و رؤساء الطوائف. وكانت أول العشائر التي حالفته وعقدت له ولاء الطاعة، هي العشائر التي كانت أول من اعتنق الإسلام في مندن و نشرته في السودان الغربي، وهي آل سيسسي، آل كامارا، وآل تونكارا. وحسب نبلاء مدينة كيتا فيكون سوندياتا قد أسرّ لهم عن نيته في أن يجعل مدينتهم عاصمة لإمبراطورية، قبل أن يغير رأيه لأسباب إستراتيجية وسياسية.

## 2. التوسعات العسكرية لسوندياتا:

### أ. غزو الجولوف:

بعد معركة كيرينا الشهيرة، وبعد وفاة الملك "نياني ماسا كامارا"، ومن بعده ابنه "ماسا دن ني كامان" لم يعد هناك من ينافسه على عرش مندي. حيث بدأ سوندياتا يطمح إلى ما هو أكبر من أرض المندي، حيث بدأ يتطلع إلى التوسع غربا باتجاه السنغال، ولقد كان قد اختار داكاجالان (كنغابا) مقرا له بعد عودته من كيرينا، أين قام بعقد جمعية عامة ضمت عدد كبير من أهل مندن، حيث شملت بالإضافة إلى السكان، قادة الجيش، ونبلاء البلد.

ألقى سوندياتا ام جنوده خطبة شرح لهم فيها ما حدث له أمام ملك الجولوف منسا جولوفين، والإهانة التي تلقاها منه، وتتلخص الحادثة في كون سوندياتا أراد أن يشتري أحصنة لفائدة جيشه، فأرسل لهذا الغرض أخاه غير الشقيق "ووري - ووري سولوماني" إلى منطقة كايور في السنغال. ولما اشترى هذا الأخير الأحصنة المطلوبة ودفع ثمنها ذهباً، مرّ في طريق عودته بأرض الجولوف التي كان ملكها منسا جولوفين مقيماً بمنطقة باسي - سيرا - سون - كورو (Bassé - Sira - Soun - Koro) وكان حليفاً سابقاً لسومغورو.

ولما وصل ووري سولوماني إلى عاصمة الجولوف، وداهمه الليل بها، أراد أن يبيت هناك، فربط أحصنته بإحدى أساسات حصون المدينة ليضعها ويشربها. ولما رأى الملك منسا جولوفين ذلك العدد الهائل من الأحصنة المربوطة، وعلم بأنها موجهة إلى ملك مندن سوندياتا كيتا غضب واستولى عليها جميعها بالقوة، وأنكر الاعتراف بوجود ملك آخر على مندن غيره. بل اعتبر سوندياتا كيتا مجرد صياد لا يصلح إلا لحرفة الصيد، وقدم ثلاثة أزواج من الصنادل المصنوعة من جلد التيتل إلى ووري سولوماني، بالإضافة إلى تسعة كلاب، وطلب منه أن يأخذها إلى سوندياتا ليستعملها في الصيد وعبور الغابات والأحراش، بدلا من تلك الأحصنة التي لا تليق إلا بالملوك. وذلك في إشارة إلى منه إلى أن سوندياتا لم يكن إلا صيادا وليس ملكا، وبالتالي جدير به بممارسة مهنة أجداده وهي الصيد، وليس ركوب الخيل.

عندما عاد شقيق سوندياتا "ووري ووري سولوماني" إلى كنگابا وهو محمّل بجلود التيتل والكلاب ومطأطفا رأسه، وأخبر الملك سوندياتا بالإهانة التي حلت بهم ، دعا هذا الأخير إلى عقد اجتماع لمناقشة الأمر والبحث عن رد الفعل الملائم لهذه الحادثة. ولقد شرح سوندياتا تفاصيل الحادثة أمام الحاضرين قائلاً لهم: (( إن هذه الإهانة هي تحدي موجه إلي شخصياً، وبالتالي فإنه يعود إليّ وحدي أمر غسل هذه الإهانة، فإذا لم أفعل هذا بنفسني فإن شعبي سيقول بأنه ليس لديه قائد يستحق هذا الاسم)) ، لكن القائدان فاكولي وتيراماكان اعتبرا بأن أمر تأديب جولوفين منسا لا بد أن يوكل إليهما، وأصرا على أن يمنحهما سوندياتا شرف قيادة الحرب ضد مملكة الجولوف. حيث نطق فاكولي قائلاً: (( إن خوضك الحرب بنفسك يعني أنك لا تثق في رجالك، وأنه ليس لك رعية تليق بمقامك، فاترك لي أمر القيام بهذه الحرب، ولسوف يعرف جولوفين منسا بأنه لا يمكن إهانة صياد دون عقاب)). ثم رد عليه تيراماكان قائلاً: ((بل أترك لي أمر هذه الحرب يا فاكولي وسوف أبيتّ لجولوفين منسا ما هي مهنة الصيد)) ، ثم ازداد التنافس بين قادة الجيش حول من يقود الحرب ضد مملكة الجولوف، بحيث انضم إليهم كل من القائد "فاران كامارا" و"مندن بوغاري" مما أدى إلى حدوث اشتباكات بينهم.

لكن يبدو من خلال الروايات الشفوية بأن القائد تيراماكان كان أكثرهم إصراراً على قيادة هذه الحملة التآديبية على مملكة الجولوف، حيث تذكر هذه المصادر بأنه لجأ إلى التهديد بالانتحار إذا لم يسمح له سوندياتا بقيادة هذه الحرب، حيث قام تيراماكان بحفر قبره بيده، وطلب من الناس أن يلفوه داخل كفن ودفنه حياً. وهنا قام أحد الرواة الشفويين لسوندياتا وهو جيلي دورا (Djeli dora)، وأخبر سيده بما ينوي تيراماكان القيام به وقال له: (( إذا قتلت كلبك الشرس فإن كلب رجل آخر سيعضُّك، لذا فإنني أرى انه يجب أن ترسله للقيام بهذه الحرب، فإنه سيزيد من شهرتك))، وهنا سمح سوندياتا لقائده تيراماكان بقيادة الحملة لغزو الجولوف قائلاً له : ((اهدأ يا تيراماكان ، فأنت الذي لم يدّخر جهداً أبداً من أجل مندن، سوف أعهد إليك بحرب الجولوف... فإذا رفض السيف القيام بهذه الحرب فإنك سوف لن ترفض)).

وهكذا أخرج تيراماكان من قبره، ومزق كفنه، وبدأ يتهيأ للحرب . فجهّز جيشاً قاده بنفسه، وتوجّه إلى مدينة "باسي - سرا - كورو" عاصمة مملكة الجولوف، وعندما وصل إلى قصر الملك منسا جولوفين طلب هذا الأخير من تيراماكان مهلة من أجل التهيؤ للحرب، لكنه لم يكن يرد إلا ربح المزيد من الوقت لتهرب الكنوز التي تركها أجداده والمعروفة باسم "فاران" والتي كانت تمثل بالنسبة إليه الدعم الحقيقي لشرعية ملكه. ولقد دخل منسا جولوفين من الباب السري، واختبأ في أحد الأروقة الموجودة بين الجدران الخلفية للقصر بعدما أخذ معه الكنوز المتمثلة في الآثار التي تركها أجداده وهي سلّم ورمح ذهبيان بالإضافة إلى رمح فضي، وبذلك تمكن من الهروب من مواجهة تيراماكان، واستطاع الخروج من أسوار المدينة. وبعد انتظار طويل قرر تيراماكان شن هجوم على العاصمة والقصر، وهنا تشير الروايات الشفوية بأن جنوده ارتكبوا مجازر رهيبة في حق سكان المدينة، ولم يسلم من بطشهم لا العبيد ولا الأحرار ولا الأطفال، فحولوا المدينة إلى أطلال.

بعد ذلك توجه تيراماكان وجنده لتعقب منسا جولوفين الهارب إلى الغابات، أين وجدوه مختبئاً داخل حفرة بحيث لم يكن يظهر إلا رجليه، بينما كان رأسه داخل الحفرة. فأخرجه تيراماكان من حفرة، ثم قام بقطع رأسه بالرغم من توسّلات منسا جولوفين بإبقائه حياً، بعدها قام تيراماكان بفصل رأسه عن جسده ووضعه داخل كيس، ثم عاد إلى كنتابا بعد أن خضعت له البلاد، وقدم له نبلاء الجولوف عدة هدايا، كما أعاد معه إلى مندن الخيول التي كان قد صادرها ملكهم، بالإضافة إلى العبيد الذين أسروهم.

وعندما عاد تراماكان تراوري من حملته ضد الجولوف عزل نفسه عن الناس لمدة أسبوع في معسكره، دون أن يقابل سوندياتا أو يقدم له نتائج حملته التي كلفه بها. وبعد مرور ثمانية أيام أخبر سوندياتا بأنه سيستقبله في موكب عظيم في الساحة الكبيرة وسط قادته، وهناك قدم تيراماكان لإمبراطور مالي غنائم الحرب من عبيد وإتاوات وهدايا، فذهل سوندياتا، وتأكّد بأن الإهانة التي وجهها له ملك الجولوف قد غسلت، كما أن الإمبراطورية اتسعت بمملكة إضافية، وأصبحت تمتد من نهر جولييا إلى المحيط الأطلسي باتجاه الغرب، أين قام تيراماكان بغسل سيفه في مياهه باسم

سوندياتا، كما أعلن نفسه سيّدا لأرض الغرب. حيث أراد سوندياتا أن يكافئ خادمه الوفي والمخلص أمام الماندي المجتمعين في الساحة الكبيرة، فمنح أراضي الغرب كلها كإقطاع لثيراماكان.

## ب. إخماد ثورة مالنكي الجبال:

يلقبون عادة بماندينكا فينغ (Mandinka – fing) أو المالنكي السود، ويشتهر هؤلاء المندينكا القاطنين في الجبال بفخرهم وكرمهم وشدتهم، وعنادهم الشديد. كما أنهم كانوا يعتقدون بأن المالنكي الصغار، الموجودين على ضفاف النهر هم نتاج وجودهم، فلقد كانوا يشعرون بأنهم هم الأصل.

لهذا فقد اندلعت ثورات في كامل الجبل، وهي لم تكن ثورة ضد سلطة سوندياتا بقدر ما كانت ثورة ضد غطرسة وتكبر مالنكي النهر، الذين كانوا يصفونهم بالنسوة اللائي فتحن أبواب الوطن أمام الحدادين الصغار من آل كاتي الصوصو. ومن أجل إعادة هؤلاء الرجال الأشداء إلى الصواب، قام سوندياتا بدعوة مان كومان جان وهو أحد قاداته الذين يتوسم فيهم الطيبة والواقعية والإخلاص والتمسك بوحدة مندن. وبكثير من الدبلوماسية والواقعية استطاع نان كومان جان (الذي ينحدر من مالنكي الجبل) أن ينجز مهمته دون صعوبات، وراح يردد أمام هؤلاء الجبليين بأن سوندياتا يفكر فيهم اليوم أكثر من أي وقت مضى، لأن العمل الحقيقي لم يبدأ بعد، وبأنه متأكد بأنهم في الوقت الملائم سيكونون أهلا للشهرة التي نالها كرجال شرف وشجاعة.

وبذلك استطاع سوندياتا أن يضمهم إليه بدون قتال، بل أصبحوا موجودين في كل غزواته، ولم يبق من مقاطعات الجبال سوى ثلاث مقاطعات، وهي: إمارة بنتينيا (Bintinnia)، وعاصمتها كامالي في منطقة صوبارا، وإمارة بندينغا (Bindinga)، وإمارة كينييا (Kinieba). ونشير هنا إلى أنه بينما تم استرجاع الإماراتين الأخيرتين (وهما بندينغا وكينييا) إلى صف سوندياتا من طرف المنقبين عن الذهب، ومن طرف جيش تراماكان، فإن إمارة بنيتا فقد استعصت عليه، وكان لا بد من بذل طرق أخرى لإقناعها بالرجوع إلى حظيرة إمبراطورية سوندياتا.

## ج. غزو بلاد المور:

بعد غزو سومنغورو لمملكة غانة وتخريبها، اضطرت التجارة بين الشرق والغرب. كما حدثت القطيعة بين الشمال والجنوب، ولقد رأينا كيف انتشرت الفوضى والنهب في المناطق الشمالية للمملكة، بالإضافة إلى الجفاف الذي أدى إلى نقص الرزق، فتفاقت ظاهرة الاستعباد التي استغلها المور لإنعاش تجارة العبيد.

وكان سوندياتا قد اتخذ قرارا بمنع العبودية في كامل السودان الغربي، لذلك قرر محاربة هؤلاء المور الذين كانوا يخالفون أوامره. لكن القائد فاكولي دومبيا طلب أن يترك له أمر تأديبهم بحكم معرفته الجيدة بهم، على أساس أنه كان قد حاربهم كثيرا عندما كان قائدا لجيش خاله سومنغورو. وقد طلب أن ينظم إلى جيشه محاربي مالنكي الجبال المعروفين بشجاعتهم وإقدامهم، والذين لا يتراجعون أبدا أمام العدو. وبذلك كوّن فاكولي جيشا من النخبة، وحرص على تدريبه بنفسه، ثم توغل في منطقة الساحل، وبدأ بالهجوم على المور ليلا ونهارا، ونصب كمائن لقوافل العبيد. فلقد كان يقطع أوتار أرجل الإبل ورؤوس قطع الطرق، كما هجم على أسواق العبيد وخرّبها، و قام جنود غانة ونيمبا الذين انضموا إلى جيشه بزرع الرعب في صفوف المور، وامتدت حملة فاكولي إلى غاية الحدود القصوى لبلاد تيشيت. ولكي يختم حملته قام فاكولي بحرق الأسواق الكبرى المستعملة في تجارة العبيد سواء كانت تابعة للسوننكي أو للمور، أما المعارضين لحملة فقد رش بيوتهم وأحصنتهم بالزبدة المذابة وأشعل فيها النار.

#### د. توسعته نحو الغرب وتأسيس مملكة كابو (غمبيا):

شكلت مملكة غمبيا منطقة جذب هامة للمندي، ذلك أن هذه المنطقة شكلت في البداية مأوى للاجئين الصوصو، الذين بدؤوا يستقرون في منطقة فوتا جالون، وعلى ضفاف نهر غمبيا بعد هزيمة سومنغورو أمام سوندياتا. كما أن سوندياتا كان يحاول منع أمراء الصوصو من بعث مملكتهم من جديد في هذه المنطقة التي لم تكن سلطته قد وصلت إليها بعد. لهذا جهز سوندياتا جيشا بقيادة تيراماكان تراوري، وتوجّه نحو المناطق الواقعة غرب مملكة مالي، مستفيدا من مناجم الذهب في بوري وبامبوك التي أصبح سيّدا عليها لتدعيم جيشه. وسالكا نفس الطريق التجاري الذي يؤدي من بوري

إلى غاية نهر السنغال، ومنها إلى الغرب، مروراً بمنطقة كيتا، وتمر بالسنغال عند منطقة كوندوروبور (Goundiourou)، جنوب منطقة كايس (Kayes)<sup>(1)</sup>.

بدأ تيراماكان يفتح الإمارات ويؤسس بعضها، وأخذ أتباعه يتكاثرون، خاصة وأن سوندياتا كان قد زوده بحوالي 35 امرأة انضمت إلى حملته، فشكّلوا بذلك أهم هجرة مالنكية باتجاه الغرب. وقد عبر تيراماكان نهر غمبيا، وكان كلما فتح مدينة أو أسس أخرى إلاّ وترك عدد من أتباعه فيها، مثل مدينتي "كابندو" و"بايونكو" في إمارة باثيانا وهي أرض غنية جداً، كما أسس مدينة "بيراد" وغيرها. وقد زار في طريقه بلاد جاكاو التي يسكنها السيرير من آل كيلوار (Les Guélowars) في إقليم سيني إلى غاية أن وصل إلى داكرو وهو إقليم لم يكن مسكوناً من قبل، حيث كان عبارة عن أدغال وغابات كثيفة، ومنها توجه إلى منطقة ندار (Ndar)<sup>(2)</sup> وعهد بها إلى القائد "لامين سيلا" بحمايتها، ثم توجه إلى مدينة "ساتوما". وهنا قسم البلاد بين قاداته وأبنائه وأقاربه، مؤسساً بذلك مملكة كابول بعدما جمع ابن أخيه وأبنائه وحدثهم عن كيفية حكم البلاد. وبعدها شعر بقرب نهايته بعد صراع لمدة سنتين مع المرض، فتوجه إلى ضفاف نهر غمبيا حيث توفي هناك، قبل أن ينقل جثمانه إلى مدينة باسي التي دفن فيها سنة 1265م. وهكذا مهد سوندياتا بفتوحاته لبناء إمبراطورية تضم جميع أرض السودان الغربي باستثناء إمارة كوكو (سنغاي). كما أن الإمارات الإسلامية الأخرى لم تقف في وجهه.

### 3: الإنجازات السياسية والتنظيمية:

#### أ. إنشاء العاصمة:

بعد النجاحات العسكرية التي حققها سوندياتا قام بإنشاء عاصمة جديدة وحس بدولافوس فإن موقع كنگابا أصبح غير ملائم بالنسبة للاتساع الذي أصبحت تتربع عليه الإمبراطورية. لذلك قرر أن يبني عاصمة جديدة. ويشير المؤرخ السوداني محمود كعت بأن المدينة التي كانت تمثل عاصمة

(5) .Madina(Lytall) , Op.Cit

(1) هي مدينة سان لويس الحالية.

إمبراطورية مالي الأولى تسمى جارب أو (دياريا) ، لكن مترجما كتابه إلى الفرنسية وهما دولافوس و هوداس، يذهب إلى أن هذه التسمية ما هي إلا الاسم الذي يطلقه الماندينغ على نهر النيجر، والذي يعني بلغة المندي "نهر الرواة الشفوين"، والذي أطلق أيضا على اسم المدينة المعروفة بكنغابا. ويعود سبب تسميتها باسم هذا النهر إلى قربها الشديد منه<sup>(1)</sup>. كما تذكر هذه أيضا باسم جوليا، وهو كذلك اسم إحدى فروع النيجر.

ويبدو أن العاصمة القديمة لمالي، وعلى اختلاف تسمياتها، كانت تقع على الضفة الشمالية للنيجر الأعلى في منتصف الطريق بين مدينتي سيغيري وبماكو. وقد أدت الحفائر الأثرية التي أجريت في نهر النيجر إلى كشف مكان تلك المدينة التي تقع عند ملتقى نهر النيجر والسنكراني، في مكان يدعى "مالي تومبو" أي أطلال مالي، حيث لا تزال توجد آثار تجمع سكاني قديم يعتبره أهالي المنطقة مقر حكم منسا مالي القديم. لكن الشيء الذي يثير الجدل هو موقع العاصمة الجديدة لسوندياتا، ذلك أنه ذكرت عدة أسماء لهذه العاصمة وعدة مواقع، لدرجة أصبحنا فيها غير قادرين على تمييز ما هي المدينة التي عاصمة إمبراطورية مالي، حتى اعتقد المؤرخ الفرنسي شارل مونتاي بوجود عدة عواصم، وبالتالي عدة إمبراطوريات حملت اسم مالي.

وتذهب آراء الدارسين اليوم، إلى أن إمبراطورية مالي قد عرفت عدة عواصم فيما بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين/11 و16م. كما تذهب كل الدراسات إلى اعتبار مدينة نياني التي تحدث عنها العمري ومن بعده ابن بطوطة<sup>(2)</sup> والقلقشندي، هي عاصمة الإمبراطورية طيلة القرنين السابع والثامن للهجرة/13 و14م، أي أنها تكون العاصمة الجديدة للإمبراطورية التي أنشأها سوندياتا. ولقد عرفت عاصمة مالي عند المصادر العربية بملل أو ملي، لكنها أكيد لم تكن نفس المدينة التي تحدث عنها البكري سنة 461هـ/1068م، والإدريسي سنة 549هـ/1154م، حيث لم تكن في عصرهما سوى مجرد قرية كبيرة، كما أنهما كانا يتحدثان عن كنغابا وليس نياني. ويذهب بينغر (Binger) نقلا عن أحد المسافرين يدعى "الحاج مامادو ملين"، والذي التقاه عام 1887م، بأن عاصمة إمبراطورية مالي كان جنوب غرب نيامينا، على الضفة اليسرى للنيجر.

(1) Mahmoud Kati ,Tarikh al fettach: p66.

أما دولافوس فيرى بأن عاصمة سوندياتا الجديدة بعد كنگابا ما هي إلا نياني، والتي هي نفسها التي تحولت من طرف اللسان المالنكي إلى مالي، أو مللي، وجولها البرتغاليون إلى مندي<sup>(1)</sup>. وإذا رجعنا إلى المصادر العربية، فإننا نجد من يذكر مدينة نياني باسم مالي مثل ابن بطوطة، بينما نجدها عند العمري باسم بيتي حيث يقول: ((وقاعدة الملك بها هي مدينة بيتي)). كما ذكرها ابن خلدون باسم بني بينما نجدها عند محمود كعت باسم ينع<sup>(2)</sup>. لهذا نجد بأن موني (Mauny) ورغم اعترافه بأن مشكلة موقع عاصمة مالي الجديدة يقى مطروحا، إلا أنه يفضل أن يعتبر المدينة التي زارها ابن بطوطة، وكان يؤمها التجار خلال القرن الثامن للهجرة/14م هي عاصمة سوندياتا الجديدة.

وتقع مدينة نياني هذه على الضفة اليسرى للنيجر، وتميل قليلا باتجاه الغرب من الطريق الواصل بين مدينتي نيامينا وكوليكورو، أي شرق مدينة كونينا الحالية. وبالتالي يمكن أن نقول بأنها تكون قد وجدت بالقرب من المكان الذي يعرف اليوم بديالاكورو (Dialakoro) بجمهورية غينيا. وعموما فإن سوندياتا قرر نقل عاصمته من كنگابا (أو داكاديالان). وهو مقر إقامة أجداده من آل كيتا منذ القدم. إلى نياني مباشرة بعد انتصاره في معركة كيرينا، ويعود سبب ذلك على ما يبدو إلى عوامل أمنية وإستراتيجية بالدرجة الأولى، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

**أولا:** عدم شعوره بالأمن في قريته كنگابا، خاصة وأن نجاحه كان محط حسد لكثير من الحاقدين من أفراد عشيرته.

**ثانيا:** الموقع الاستراتيجي لنياني. فلقد جمع موقعها بين الحصانة والمناعة، بوقوعها بين الجبال، وبين الاتساع والخصوبة لأنها تعد سهلا واسعا محاذ للنهر. بالإضافة إلى مجاورة نياني للغابة التي تعد مصدرا للكولا وزيت النخيل، والذهب. وهي سلع كانت كفيلة بضمن تدفق التجار المالنكي عليها، لبيع الأقمشة والمواد النحاسية، مقابل تلك السلع الاستوائية الثمينة. وبذلك تحولت نياني من مجرد مدينة صغيرة إلى عاصمة لإمبراطورية كبيرة ذاع صيتها في أنحاء العالم، خاصة بعدما أصبحت ملتقى لطرق

---

(<sup>2</sup>) Haut Sénégal-Niger,t2,p181

(<sup>2</sup>)Ibid.,p66

القوافل المتجهة نحو الشمال الشرقي إلى سيلا، والمعروف بطريق منديه. فأصبحت قبلة للتجار الزوج والمغاربة على حد سواء، وتحولت بذلك إلى عاصمة سياسية واقتصادية للإمبراطورية.

## ب. تنظيم الدولة:

### 1. تشريعات كوروكان فوكا:

تنسب الروايات الشفوية لسوندياتا كيتا إنشاء أول دستور عرفه السودان الغربي في تاريخه، ويعد هذا الدستور الذي أنشئ في قرية "كوروكان فوكا" عام 633هـ / 1236م حسب هذه الروايات، بمثابة الميلاد الحقيقي للأمم المالية بأكملها.

وتقع قرية كوروكان فوكا قرب مدينة كنگابا، على بعد 200 كيلومتر جنوب مدينة بماكو الحالية. اختارها المليون لتكون مقرا لميلاد دستورهما الذي سوف يقن قواعد عرفهم ومحرماتهم التي كانت تنظم العلاقات فيما بين عشائهم، وبين عشائر الغرب الإفريقي الأخرى. فكان ذلك الاجتماع إذن بمثابة جمعية تأسيسية حقيقية للإمبراطورية المالية الناشئة. ولقد كانت فكرة تنظيم ذلك الاجتماع من اقتراح كبير الرواة الشفويين الخاصين بسوندياتا كيتا وهما: بالا فاسيكي كوياتي (Bala fasséké Kouyaté)، وكالاجيسونغوي دياباتي (Kaladjé Songhoi Diabaté) بالإضافة حكام الإمارات المندية.

لكننا نضن بأن سوندياتا كانت له النية أيضا بعقد هذا المؤتمر، وتزويد إمبراطوريته بميثاق حتى قبل أن يقترح عليه الأمر من طرف هؤلاء الرواة والأمراء، ذلك أن رواة كيرينا يذكرون بأن سوندياتا كان قد أطلع نبلاء مدينة كيتا عندما زارهم من أجل الاستحمام في بحيرة "موكوييا - جي" بأنه سيعلم قريبا عن ميثاق أساسي لكل بلاد مندن، وقد ذكر ذلك باللغة المالنكية حيث سماه مندن باسيكي كان (Manden bassigui kan). وانعقد اجتماع كوروكان فوكا سنة 633هـ / 1236م، أي بعد سنة واحدة من انتصار كيرينا الشهير، لكننا لم نجد في المصادر الشفوية اليوم والشهر الذي انعقدت فيه.

وتشير هذه المصادر إلى أن قرية "كوروكان فوكا" أخذت اسمها من هذا الحدث السياسي والتاريخي الهام، فهي تتشكل من ثلاث كلمات مالنكية هي: كورو وتعني جمعية، كان وتعني اليمين وفوكا التي تعني الفرجة في الغابة.

و بهذا تكون هذه الكلمة المركبة تعني (الجمعية التي أدي فيها اليمين). وقد انعقد هذا المؤتمر تحت القيادة السامية لسوندياتا، وكان نائبه هو أخوه غير الشقيق مندي بوري، ومحاط بأربعة من رؤساء قبائل هم : سبي كاماجان كامارا، تابون نغابا فران كامارا، فاكولي كوروما أو (دومبيا) وتاولي تونكارا (وهو الأخ الأصغر لملك نيما وهو نيما موسى تونكارا). حيث يعتبر هؤلاء الرجال من اقرب الناس إلى سوندياتا، باعتبارهم كانوا هم من رافق سوندياتا إلى منفاه بميما، ودعموه في كل قراراته.

ولقد تمخض عن اجتماع كوروكان فوكا أربعة وأربعين قانون أو قرار. شملت تنظيم السلطة السياسية، وحددت العلاقات الاجتماعية، ونصت على المبادئ الأساسية الموجهة والمنظمة للحياة اليومية في مندن. كما قررت هذه الجمعية اختيار إمبراطور مالي، حيث نودي بسوندياتا رسميا منسا (وتعني ملك باللغة المالنكية)، أو ماغان (أي إمبراطور بلغة السوننكي)، وكان ذلك أول قرار يتخذ في هذا الاجتماع. وإذا أردنا تصنيف قوانين دستور كوروكان فوكا إلى ميادين مختلفة .

## المحور الثاني

## منسا موسى كيتا (كونكو موسى)

### الملك الحاج

#### اولا: منسا موسى في المصادر العربية:

لم يشتهر أي ملك من ملوك مالي أو ملوك السودان مثل ما اشتهر هذا الملك، حيث تجاوزت شهرته قارة إفريقيا ووصلت إلى آسيا وحتى أوروبا، وإذا كانت الروايات الشفوية قد خلدت سوندياتا من خلال الأشعار والملاحم، فإنه يعود للمصادر العربية كل الفضل في تخليد هذا الملك، الذي ذكره ابن خلدون باسم منسا موسى (أي الملك موسى) ووصفه بالرجل الصالح والملك العظيم<sup>(1)</sup>. وقال عنه ابن كثير: (( الملك الأشرف موسى بن أبي بكر، وهو شاب جميل الصورة، له مملكة متسعة مسيرة ثلاث سنين، ويذكر أن تحت يديه أربعة وعشرين ملكا، كل ملك تحت يده خلق وعساكر)). وقال عنه أبو الفضل العمري بأنه ((أعظم ملوك السودان المسلمين وأوسعهم بلادا، وأكثرهم عسكرا وأشدهم بأسا، وأعظمهم مالا وأحسنهم حالا، وأقهرهم للأعداء، وأقدرهم على إفاضة النعماء)).

كما ذكره عبد الرحمان السعدي باسم كنكن موسى، وقال عنه بأنه رجل صالح عادل، لم يكن في ملوك مالي مثله في الصلاح والعدل. ويدعوه محمود كعت بـ"مالي كوي كنكن موسى" وتعني بلغة السنغاي إمبراطور مالي أو المندينغ، ويصفه أيضا بالملك الفاضل التقوي والورع.

وذكره ابن حجر العسقلاني بموسى بن أبي بكر سالم التكروري، ووصفه بصاحب التكرور أي ملك التكرور. كما يعتبر عهده الممتد من 706 إلى 737 هـ/1307 إلى 1337 م، أزهي فترات الإمبراطورية.

#### ظروف اعتلائه عرش مالي:

(1)المصدر السابق، ص267

لقد وصل منسا موسى إلى الحكم حسب بعض الروايات سنة 706هـ/1307م، بعدما غاب والده أبو بكر الثاني في البحر، بينما ترى روايات أخرى بأنه اعتلى عرش مالي سنة 702هـ/1303م. حيث يعتبرونها هي السنة التي أبحر فيها أبوه إلى المحيط الأطلسي. ويذهب الرحالة بارث إلى أنه حكم بين 710 إلى 731هـ/1311 إلى 1331م، ويعطي الزوجان كورنغان تاريخاً آخرًا مختلفًا عن سابقهم، حيث يقولان بأن والده أبو بكاري الثاني خرج إلى البحر سنة 709هـ/1310م، أما ابنه موسى فلم يتولى أمور الحكم إلا في سنة 710هـ/1312م.

إلا أننا نعتقد بأنه اعتلى العرش قبل التأكد من اختفائه بالبحر، لأن أبا الفضل العمري لما أورد قصة منسا موسى التي رواها في مصر عندما سأله ابن أمير حاجب عن كيفية انتقال الحكم إليه، وذكر فيها بأن رئيس المركب الذي نجا من البحر وعاد ليخبرهم بمصير بقية المراكب المفقودة خاطب منسا موسى قائلاً له: (( تعلم أيها السلطان أننا سرنا زماناً طويلاً حتى عرض لنا في لجة البحر واد له جرية قوية وكنت آخر تلك المراكب، فأما تلك المراكب فإنها تقدمت فلما صارت في ذلك المكان ما عادت ولا بانة، ولا عرفنا ما جرى لها، وأما أنا فرجعت من مكاني ولم أدخل ذلك الوادي))<sup>(1)</sup>.

نلاحظ إذن بأن رئيس المركب خاطب منسا موسى بكلمة (أيها السلطان)، مما يعني أنه في ذلك الوقت كان ملكاً على مالي، فقد يكون أبوه قد ولاه الملك خلفاً له قبل أن يشد رحاله إلى تلك المغامرة البحرية. وعموماً فإن عدم ذكر ابن خلدون تاريخ اعتلاء هذا الملك الحكم، جعل عملية الفصل بين التواريخ المقدمة من طرف المؤرخين المحدثين، والتدقيق فيها صعبة.

## أسماءه و القابه:

ولقد عُرف هذا الملك أيضاً باسم موسى الأسود لسواد بشرته.<sup>(2)</sup> كما اختلف المؤرخون حول تسميته باسم كنيكن موسى أو كونكو موسى، فهناك من يقول بأن ذلك نسبة لأمه التي كانت تسمى نانا كنيكن، فأصبح يدعى كونكو موسى أي ابن كونكو. وهناك من يقول بأن سبب هذه

(1) مسالك الأبصار، ج13، ص121.

(2) جوان جوزيف : المرجع السابق، ص72.

التسمية يعود إلى مكان ولادته، حيث وضعته أمه في منطقة تسمى كنانان فأصبح يدعى موسى منطقة كنانان.

كما اشتهر هذا الملك أيضا باسم الملك الحاج، ويعود ذلك لرحلته الشهيرة إلى الحج والتي تكلمت عنها المصادر العربية والسودانية بكثير من الإنبهار، وأضفت عليها صبغة أسطورية، فقد قام بهذه الرحلة سنة 724هـ/1324م.

### رحلته الشهيرة إلى الحج:

ويروي لنا المؤرخ السوداني محمود كعت قصة طريفة حول سبب قيام منسا موسى بهذه الحجة وإعطائها ذلك الاهتمام البالغ، حيث نقلها لنا عن أحد السوننكي النبلاء المدعو الطالب محمد كوما، ومفادها أن منسا موسى قتل أمه نانا كنانان عن طريق الخطأ، فسبب له هذا الحدث ألما وحزنا كبيرين، فقرر أن يكفر عن ذنبه عن طريق التصدق بكميات كبيرة من المال على الفقراء وصوم بقية حياته، ولما سأل أحد العلماء عن الطريقة التي تمكنه من التكفير عن خطأه، فنصحه بالتوجه إلى الله وأن يطلب منه المغفرة، وهنا قرر منسا موسى تجهيز موكب ضخم من أجل الذهاب إلى البقاع المقدسة للحج، وطلب المغفرة من الله. وقد أخبره أحد فقهاء بأنه يجب أن يشد الرحال إلى مكة المكرمة في يوم السبت الذي يصادف اليوم الثاني عشر من الشهر القمري، فحمل معه خمسمائة عبد، ويبد كل واحد منهم العصي من الذهب، وفي كل منها خمسمائة مثقال من الذهب، أي حوالي 1757,7 غرام من الذهب. كما رافقه في هذه الرحلة ثمانية آلاف رجل، كما أخذ معه زوجته المدعوة إناري كونتي (Inari konté) مرفوقة بخمسمائة خادمة وامرأة لتقمن بشؤونها.

وفي طريق رحلته من بلاد السودان إلى مصر، كان موسى كنانان كلما صادف دخوله إلى أي مدينة يوم جمعة إلا وبنا بها مسجدا في ذلك اليوم، إذ تعد مساجد كل من مدينة كوندام (Goundam) ودوكوري (Doukourei)، وديري (Dirie) وكونكو (Kounko)، وباكو (Bakou)، من المساجد التي بناها في طريقه إلى الحج. وقد أدخل معه إلى مصر ثمانين حملا من الذهب التبر، كل حمل سعته ثلاثة قناطير. كما صرف في مكة على سبيل الصدقة عشرين ألف قطعة ذهبية.

لقد أثر الذهب الذي أنفقته منسا موسى على سعر الذهب في مدينة القاهرة، حيث يذكر العمري بأن الذهب كان مرتفع السعر بمصر، حيث كان المثقال لا ينزل عن خمسة وعشرين درهما، ويزيد عليها، ومنذ أن جاء منسا موسى في تلك السنة إلى مصر، نزلت قيمته ورخص سعره سنوات، إذ لم يعد يتعدى سعر المثقال الواحد منه ثنين و عشرين درهما وما دونها واستمر ذلك لمدة تقارب اثني عشرة سنة، وذلك لكثرة ما جلبوه من ذهب إلى القاهرة، وأنفقوه بها. ويُذكر بأنه خرج من بلده بمائة وسق جمل(أي حمولة جمل) من الذهب أنفقها في حجته على القبائل بطريقه من بلاده إلى مصر، ثم من مصر إلى الحجاز الشريف، إلى درجة لجوئه إلى الاقتراض عند عودته إلى بلده، خاصة بعدما تأخر بمكة بعد انقضاء موسم الحج بأيام، فاستدان هو وأمرائهم أحد تجار الإسكندرية يدعى سراج الدين، وذلك مقابل مكاسب كثيرة تقدر بثلاث مائة دينار مقابل سبع مائة دينار رجحا، ثم بعثها إليهم بعد رجوعه إلى بلاده.

لم يكن منسا موسى عند الشعب المالنكي مجرد ملك يحكم البلاد والعباد فقط، وإنما كان وليا من أولياء الله الصالحين، وهي مكانة دينية رفيعة بلغها نتيجة ما عرف عنه من تقوى وحسن عبادة، وتصدقه وحرصه على تطبيق تعاليم الإسلام. حيث يشهد لها بن أمير حاجب وهو والي مصر لما حل في بها، بأنه كان على نمط واحد في العبادة والتوجه إلى الله عز وجل كأنه بين يديه لكثرة حضوره، ومحافظ على الصلاة والقراءة والذكر مع حسن الزي في الملابس والسكينة والوقار، وكان كريما جوادا كثير الصدقة والبر.<sup>(1)</sup> وعندما استقبله السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في قصره بعد إلحاح شديد من المهمندار رفض أن ينحني أمامه، وقال للترجمان: ((أنا مالكي ولا أسجد لغير الله)).

ولقد بلغت إمبراطورية مالي في عهده أوج اتساعها وقوتها وازدهارها، حيث كانت تمتد من سواحل المحيط الأطلسي غربا إلى غاية حدود نيجيريا الحالية، ومن الجنوب فقد كانت تحدها الغابات الاستوائية، أما من الشمال فتحدها المراكز التجارية للصحراء الكبرى، فتح منها بسيفه وجنده أربعاً وعشرين مدينة ذوات أعمال وقرى وضياع. كما قام باحتواء الخرائب التي كانت من أراضي مملكة غانة في باغينا Baghena، والأراضي المعمورة الممتدة إلى غاية أدرار الموريتانية شمالا، بالإضافة إلى

(3) العمري: المصدر السابق، ص ص 119 و 121

بلاد التكرور الغربية. كما تميزت فترة حكمه بالرخاء الاقتصادي، حيث كانت مالي تنتج الحبوب بكميات كبيرة، وازدهرت زراعة القطن، وسيطرت على مناجم الذهب في بامبوك وبوري، واستفادت من حديد السنغال الأعلى، ونحاس منطقة ديارا.

### مالي في عهد منسا موسى:

وقد عرفت مالي في عهده علاقات دبلوماسية وتجارية مع فاس بالمغرب الأقصى في عهد السلطان المريني أبي الحسن، حيث كانت له معه مواصلة ومهاداة، وتبادل الوفود بين الدولتين. فلقد ذاعت شهرة منسا موسى في العالم الإسلامي، وقام الرسامون برسم صورته وهو يرتدي عباءة الملك الفخمة وعلى رأسه تاج من الذهب الخالص المرصع بالجواهر والأحجار الكريمة، يمسك بإحدى يديه كرة ضخمة من الذهب وفي يده الأخرى صولجان الملك من الذهب الخالص. كما أنه في سنة 1339هـ/731 وجد اسم مالي مكتوبا على خرائط العالم التي وضعها الجغرافي الايطالي "أونجيلو دولسرت"، كما وجد في الأطلس الجغرافي الذي وضعه "أبراهام كريسك" لشارل الخامس ملك فرنسا، وفيه اسم مالي بوضوح.

### وفاته:

وقد توفي هذا الملك بعد خمس وعشرين سنة لحكم، أي في سنة 733 للهجرة /1332 ميلادية<sup>(1)</sup> تاركا وراءه إمبراطورية واسعة وقوية، تتمتع بسمعة وهيبة تجاوزتا حدود السودان الغربي، فلقد كانت إمبراطورية مالي عند وفاته تمتد من بلاد التكرور غربا إلى غاو وإلى ما ورائها شرقا، وتضم معها جزء كبير من الصحراء، أما جنوبا فقد بلغت حدود الإمبراطورية عمق الغابات الاستوائية.<sup>(2)</sup> لكن بمجرد خلافته من طرف ابنه منسا مغا حتى دخلت البلاد في فوضى عارم، وبدأت عوامل الضعف تحل في أرجاء الإمبراطورية على أيدي خلفائه الذين جاؤوا من بعده.

(5) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج4، ص384.384، Op.Cit. :Delafosse

(2) E .W Bovil and Robin Hallet: The golden trade of the Moors; West African kingdoms in the fourteenth centry. Edited by: Markus Wiener Hallet Publisher, 1995, p89.

### المحور الثالث

أسكيا محمد توري (ملك سنغاي)

نسبه و مولده و صفاته:

ذكره القاضي محمود كعت باسمه الكامل و هو الاسكيا الحاج محمد بن أبي بكر النوردي أصلا الكوركري دارا و مسكنا، والده كان يلقب بأرلوم و هو ينتمي إلى عشيرة سيلا، أي انه من طائفة

التوري او التورودي، أما والدته فتسمى كوساي، و هي ابنة كورا . كوي ، أي حاكم منطقة كوي و هي جزيرة كبيرة يحيط بها النيل و هي بالقرب من تنبكتو. وهناك من يحاول أن يوصل نسبه من أمه إلى الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري، يلقبه السعدي بالأسعد الأرشد محمد بن أبي بكر. و عموما فهو ينحدر من اسرة سودانية سوننكية على عكس الأسترتين السابقتين الحاكمتين لمملكة سنغاي وهي عائلة ذا و عائلة سني التي تعدان أسترتان بربريتان من بربر لمطة الصنهاجية.

و يلقب بالاسقيا الحاج محمد توري لأنه كان مؤسس عائلة الاسقيين التي حكمت مملكة سنغاي بعد عائلة سني، حيث يذكر السعدي بان محمد التوري كان قائدا جيوش الملك السابق من عائلة سني وهو أبو بكر داعو، و كان من رجاله المخلصين، فلما انقلب عليه و بلغ الخبر مسامع بنات سني علي خرجن يرددن كلمة اسكيا، اسكيا و معناها في لغتهم لا يكون اياه أي لا يمكن أن يفعلها هذا الرجل، فلما سمعه محمد توري أمر أن لا يلقب إلا به<sup>(1)</sup>، فسموه منذ ذلك الحين اسكيا محمد، ثم توارث اللقب أبناؤه من بعده حيث أصبح لقباً للعائلة الحاكمة كلها. كما يلقبه عبد الرحمان السعدي ايضا السيلانكي و التي تعني انتمائه إلى عائلة سيلا و هي عائلة تنتسب إلى القائد المرابطي أبي بكر بن عمر من خلال زوجته فاتيماتو(فاطمة) سيلا.

أما بخصوص تاريخ مولده فان المصادر المكتوبة لم تشر إلى ذلك، و تكتف فقط بذكر تاريخ توليه عرش سنغاي، و تاريخ وفاته أيضا، لكن بعض الدراسات ترجح انه ولد سنة 1443م بفوتا تورو بالسنگال.

و لقد وصفت المصادر التاريخية السودانية أخلاقه الرفيعة و مناقبه الفاضلة، حيث يقول عنه محمود كعت: « ... و له من المناقب و حسن السياسة و الرفق بالرعية والتلطيف بالمساكين ما لا يحصى و لا يوجد له مثل لا قبله و لا بعده و حب العلماء و الصالحين والطلبة و كثرة الصدقات و أداء الفرض و النوافل، و كان من عقلاء الناس و دهاثم، والتواضع للعلماء و بذل النفوس و الأموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين و أعانهم على طاعة الله و عبادته».

<sup>1</sup> السعدي، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص 72.

كما وصف عبد الرحمان السعدي مناقبه بقوله: « واجتهد بإقامة ملة الإسلام و إصلاح أمور الأنام و صاحب العلماء و استفاتهم فيما يلزمه من أمر الحل و العقد و ميز الخلق».

### ثانيا : ظروف توليه عرش سنغاي:

نحن ممتنون كثيرا للمصادر السودانية التي تحدثت بشكل مفصل عن الظروف التي أوصلت الأسقيا محمد توري إلى الحكم، فالسعدي يذكر بأنه في سنة 898هـ/1492م توفي السلطان سني علي لما كان عائدا من غزوة ضد الغورمنشي في بلاد الموشي، فغمره سيل جارف من المياه في الطريق في نهر يسمى كوني<sup>(1)</sup> فمات غرقا و ذلك يوم 15 محرم سنة 898هـ الموافق ل 6 نوفمبر 1492م. فخلفه ابنه ابو بكر داعو على عرش سنغاي، و كان محمد توري من كبار قادة جيش والده آنذاك، فقرر أن ينقلب على السلطان الشاب ، و بدأ بتحضير الحيل التي التي تحقق له هدفه، و لما فرغ من ذلك توجه اليه مع من انظم اليه من جنوده و خاصته فهجم على السلطان في ليلة من جمادي الاولى من سنة 898هـ/18 فبراير 1493م، فهزمه و هرب أبو بكر داعو إلى أن وصل إلى قرية تسمى انكو قرب جاو فتبعه و جرت بينهما معركة أخرى أدت إلى هزيمته و وفاته، و بذلك اعتلى محمد توري عرش سنغاي مؤسساً عائلة حاكمة جديدة تسمى عائلة الاسقيين.

و يعود سبب انقلاب محمد توري على ابي بكر داعو هو رفض هذا الأخير الإصلاحات التي طلبها منه محمد توري بخصوص تطبيق الدين الإسلامي الصحيح، الا أن الملك الجديد أصر على إتباع طريق أبيه و رفض اتباع الإسلام الصحيح، حيث كان محمد توري و مجموعة من القادة العسكريين في جيش سني علي ناقلين على تصرفات هذا الأخير خصوصا بسبب بعده عن الدين الصحيح و تقتيله للعلماء و الصالحين، و إتباعه للتقاليد الوثنية و ممارسته للظلم و الفسق، فكوّن هؤلاء القادة فريقا إسلاميا يسعى لإصلاح الدين في سنغاي و متأثرين بعلماء تنبكتو، و يتشكل هذا

---

<sup>1</sup> يشير دولافوس بان هذا النهر ربما يكون عبارة عن فيضانات السيول المائية التي تخرج من الجبال جزاء الأمطار الغزيرة، علما بان كوني هي كلمة ماندية تعني السيل.

Delafosse(Maurice), Haut Sénégal-Niger, Op.cit, p82.

الحزب من محمد بن أبي بكر الذي كان له لقب بتنديو فارما و التي تعني قائد الجبال، و أخيه عمر كمزاغ (كومدياغو) والملقب أيضا بكورمينا فاري<sup>(1)</sup>.

وتقول المصادر بان سني علي لما وافته المنية كان برفقته ابنه أبو بكر داعو الملعب بسني بارو، و في طريق عودته و لما وصل إلى منطقة تسمى بنكي تم توليته في الثاني ملكا خلفا لأبيه، و بعد مرور أربعة أشهر على ولايته ظهرت له حركة معارضة يقودها الاسقيا محمد بن أبي بكر التوري، حيث التقى الطرفان في مدينة انفع، و دار بينهما قتال عظيم، فكان النصر حليف الاسقيا محمد و هرب سني بارو. لكن الاسقيا محمد توري لم يعلن هذه الحرب على شي بارو إلا بعدما أرسل له العالم و الولي الصالح محمد تل الشريف يدعو إلى الإسلام ، لكنه أبي و امتنع، بل و أغلظ الكلام لذلك العالم و همّ بقتله، ثم عاد هذا العالم إلى الاسقيا محمد يخبره بما حدث بينه و بين شي بارو، فأعاد الاسقيا محمد الكرة و أرسل مرة أخرى العالم الصالح الونكري الأصل الشيخ ألفا صالح ديور إلى شي بارو وابلغه رسالة الاسقيا محمد لكنه تمادى في عناده و امتناعه و تجبره، و طلب احد وزرائه أن تقطع عنق هذا العالم لكنه لم يفعل، و ابلغه رسالة شي بارو إلى الاسقيا محمد بان جوابه له هو القتال، لكن رغم ذلك فقد جمع الاسقيا محمد العلماء و الفقهاء و أكابر الناس و قادة الجيش لمشورتهم حيث اتفقوا أن يرسلوا له رسولا ثالثا عله يلين قلبه و يهتدي إلى الإسلام الصحيح، حيث أرسل إليه هذه المرة القاضي محمود كعت الذي حمل إليه رسالة الاسقيا محمد، لكنه أبي و امتنع بل انه أمر بضرب طبول الحرب، فعاد محمود كعت و اخبر الاسقيا، كما هرب احد وزرا سني علي و هو بركي منسا موسى و أبناءه العشرة إلى جيش الاسقيا و قدموا له البيعة، كما قدم له البيعة بقية أتباعه ، فاندلعت الحرب بينهما حيث انهزم جيش سني باروا شر هزيمة، و توفي في هذه الحرب سني بارو و اعتلى بذلك الاسقيا محمد عرش سنغاي واضعا بذلك حدا و نهاية لحكم عائلة سني الظلمة و مؤسسا لعهد عائلة الاسقيين.

ثالثا: رحلته الشهيرة إلى الحج:

---

<sup>1</sup> Mahmoud Kati, Tarikh el fettach, traduit par : . Traduit par: O.Hodas et Maurice Delafosse. Paris, 1913, p89.

يبدو أن تولي الاسقيا محمد توري العرش عن طريق الانقلاب العسكري كان يفقده نوعاً من الشرعية، كونه انقلب على اسرة بربرية عريقة بنت شرعيتها في الحكم على اساس ديني وتاريخي يعود إلى القرون الميلادية الأولى استناداً إلى قصة جداهم الأول الذي زعموا انه جاء من اليمن ، و رغم أن الاسقيا محمد قد تلقى دعم الفقهاء و كبار القوم و قادة الجيش ، و اخذ مبايعتهم، لكن يبدو انه كان يبحث عن عمل يخلصه من كل تلك الشكوك و يثبت قدمه راسخاً في مملكة سنغاي له و لأسرته و أبنائه من بعده.

لقد كان محمد توري رجلاً امياً لكنه مفعم بالايمان و أكثر من ذلك رجل سياسي محنك و صاحب بعد نظراً، لذلك فانه قرا في سيرة الاولين من عظماء الملوك في غرب افريقيا فوجد في قصة رحلة الحج الشهيرة للملك منسا موسى ملهما له في تجاوز تخطى عقبة الشرعية الدينية للملكه، فقرر أن يقوم برحلة حج عظيمة تدخله التاريخ ، و نكسبه شرعية تاريخية لا تنازعها عليه أي قوة.

فلقد كانت رحلته إلى الأراضي الحجازية في موسم (1496 - 1497م)، أي سافر في سنة 902 هجرية و ذلك في شهر صفر، و اصطحب معه جماعة من أعيان كل قبيلة، و يروي لنا محمود كعت حدوث بعض الكرامات اثناء هذه الرحلة، بسبب وجود بعض الأولياء الصالحين الذين رافقوهم و منهم الشيخ مور صالح جور الوعكري، الذي أنقذتهم بركته من الموت عطشا<sup>(1)</sup>.

كما اصطحب معه 1500 رجل منهم خمسمائة فارس و ألف مترجل، و كان معهم ابنه اسقيا موسى، كما حمل معه في هذه الرحلة ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية و هو من الغنائم التي غنمها من سني علي، و لما وصل إلى مكة تصدق منها بمائة ألف قطعة ذهبية في الحرمين، كما اشترى منهم جنانا في المدينة المنورة و حبسها على أهل التكرور، و انفق مائة ألف أخرى، و اشترى السلع و جميع ما يحتاجه إليه بمائة ألف أخرى، و التقى في مكة بالشريف العباسي.

**أهم إصلاحاته بعد توليه الحكم:**

---

<sup>1</sup>السعدي(عبد الرحمان)، تاريخ السودان، مصدر سابق ذكره، ص 72.

بمجرد عودته إلى بلده، و هو يمتلك الشرعية الدينية لحكمه، تلقب الاسقيا الحاج محمد توري بلقب الخليفة، ثم اعلن تطبيق الشريعة الإسلامية داخل إمبراطوريته، و التي على أساسها ترتبت مجموعة من الإصلاحات من اجل تنظيم الدولة.

### اولا: الإصلاحات العسكرية:

قام بتكوين جيش نظامي بعدما كان في عهد سني علي مفروضا على جميع السكان خلال التعبئة العامة للحرب، لهذا فقد عمل الأسقيا على تشكيل جيش محترف<sup>1</sup>، بعدها تفرغ لتوسيع مملكته فأخضع مسينا و ديارا و بلاد الموشي بعدما رفضوا الدخول في الإسلام، و غزا أغاديس و بلاد الآير في الصحراء. أما جني فخضعت له طواعية بدون حرب، و في سنة 1522 م غزا بلاد التكرور و استولى على منجم غلام الذهبي<sup>2</sup>، و في سنة 5159 م توجه نحو بلاد الهوسا و غزا مملكة كتسينا و تحالف مع ملك كبي الذي كان قويا، كما حارب قادة مالي و انتصر عليهم في الغرب. و في السنة الرابعة من حكمه غزا بلاد الموشي في نهر الفولتا، حيث اخذ معه الى هذه الغزوة الشيخ السيد المبارك مور صالح، حيث جعله رسولا بينه و بين سلطان موشي، حيث بلغه رسالته التي يدعو فيها ملك الموشي إلى الدخول في الإسلام، لكن هذا الأخير رفض بعدما شاور الأموات و الكهنة، حسب معتقداتهم. لذلك قام الاسقيا محمد بإعلان الجهاد عليهم، و خرب أرضهم و ديارهم، و سبا ابناهم، و كانت أول غزوة إسلامية في بلاد الموشي في التاريخ. اما اهل جني فقد دخلوا في طاعته بدون قتال.

### المحور الرابع

### إدريس ألوما (1580-1617)

<sup>1</sup> شعباني نور الدين، محاضرات في ممالك السودان الغربي، دار الجزائر للنشر، الجزائر، 2018، طبعة أولى، ص 72.

<sup>2</sup> السعدي، المصدر السابق، ص ص 74. 75.

هو الماي ادريس الوما ملك إمبراطورية كانم-بورنو ، التي ظهرت شرقي بحيرة تشاد، رجل دولة بارز ، عرفت مملكة كانم بورنو تحت حكمه (1564-159) قمة المجد والاتساع و القوة. و ذلك بفضل مهاراته العسكرية و توسعته، بالإضافة إلى الإصلاح الإداري وتنظيماته السياسية التي اتخذت طابعا إسلاميا. فلقد وحد مملكة البورنو مع كانم و طارد الأعداء. و لقد تمكنا من معرفة هذه الشخصية بفضل مؤلفه أحمد بن فرطوا<sup>1</sup>.

### اولا: نسبه وظروف توليته العرش:

هو ادريس بن علي ، والدته تدعى أسماء ، و هي بنت احد السلاطين البولالا المدعو عمر، بعد وفاة والده كان صغيرا جدا في السن لذلك انتقل عرش المملكة إلى ابن عمه دوناما، ثم إلى ابن هذا الأخير و هو عبد الله، و في نفس الوقت كانت والدته قد أخفته عن أعين بني عمومته لحمايته من بني عمومته باعتباره الوريث الشرعي للعرش، و كان أبناء عمومته يحالون الاحتفاظ بوراثة العرش لنسلهم من بعدهم، حيث تقول الروايات الشفوية بأنها أرسلته الى كانم عند والدها بحيث يكون في أمان هناك. كما تقول روايات أخرى بأنها بنت له قصرا في منطقة غامبارو (Gambaru)، بعيدا عن العاصمة غازارنامو حتى عزله عن القصر الملكي و عن الأعين، و عند وفاة عبد الله الذي لم يكن له أبناء، و عدم وجود أبناء ذكور للدوناما، ونظرا لغياب ادريس الذي كان في كانم، فانه تم تعيين ابنة

---

**1 عنوان هذا كتاب هو ( من شأن سلطان إدريس ألومه وما وقع بينه وبين أمراء بلاد كانم ) لمؤلفه الإمام أحمد البرنوي أشهر المؤلفات العربية التاريخية البرنوية، وقد قامت بطباعته مطبعة الأميرية في كنو، ويعد هذا الكتاب وغيره للمؤلف من أهم المصادر في تاريخ كانم برنو الإسلامي. هو كتاب يجمع مناقب (الماي إدريس ألومه) وفضائله، وما كان يلتزمه من مجاهدات تقوم على التقوى والتوكل على الله، كما أمدنا هذا المؤلف بتفاصيل كثيرة عن غزواته وحروبه ضد الكافرين المشركين في المملكة. عدّ الإمام أحمد البرنوي أحد العلماء الأفاضل الذين ظهوروا في مملكة كانم برنو في العصور الوسطى، وقد ترك كثيراً من المؤلفات حتى لتشبهه في مجموعها دائرة المعارف الكبرى تضم العلوم الشرعية والأدبية والتاريخية.**

وقد عمل كاتباً للسلطان في البلاط الملكي، ويشير حديثه الكثير عن القضايا والشرائع التي كان يفصل فيها للسلطان في العديد من شؤون الإدارة؛ إلى أنه كان مستشاراً للملك في الأمور الدينية وغيرها [1]، وأنه أدى دوراً خطيراً ملموساً في الشؤون السياسية في الإمبراطورية، وقد أتاحت هذه المكانة للمؤلف أن يرى بنفسه ومن قريب كل ما كان في هذه الدولة من عوامل قوة أو انحلال وضعف، وهو ما أعانه على كتابة مؤلفه العظيم في تاريخ مملكة كانم برنو.

انظر: آدم أديبايو سراج الدين، رؤية نقدية لكتاب تاريخ الماي ادريس و غزواته، للامام احمد برنوي، مجلة قراءات افريقية، عدد الثالث، ديسمبر 0227 م ، ص 41.

عبد الله عيسا كيلبي نغيرماماراماما (Aissa kili N'guirmamaramama)، التي استولت على الحكم و حاولت الاحتفاظ به و منعه عن الوريث الشرعي ادريس، و لكنها استسلمت بعد سبع سنوات من الصراع معه من 1573 الى 1580م.

بعد توليه العرش قام ادريس الوما بارحلته إلى الحج خلال سنوات حكمه الاولى، حيث مر في طريقة إلى مكة بمصر التي استفاد منها بالكثير من لاشياء منها اكتشافه للسلاح الناري حيث جلب معه في طريق عودته قافلة محملة بالبنادق، كما جلب معه مدرين اترك لتعليم جيشه استعمال هذه الاسلحة، و اسس كتيبة من البندقين مكونة من العبيد، فلقد استفاد من هذه الاسلحة لمحاربة القبائل الوثنية في الجنوب<sup>1</sup>.

### ثانيا: انجازاته العسكرية:

لقد عرف الحاج ادريس الوما عدة خصوم منهم الهوسا في الغرب ، والطوارق وتوبو . و الساو في الشمال و طردهم من منازلهم ، والبولالا في الشرق وتشير القصائد الملحمية انتصاراته 330 حرب وأكثر من الف معركة. تضمنت خبرته في توظيف معسكرات ثابتة بجدران و حصون، بالإضافة إلى محاصرة أعدائه لمدة طويلة كما استعمل سياسة الأرض المحروقة حيث أحرق الجنود كل شيء في طريقهم وخيلهم المدرعة وركابهم بالإضافة إلى استخدام الجمال البربرية في حروبه، ومركبات كوتوكو ، و استعمل والفرسان بلباسهم الحديدي و المدرين من طرف العثمانيين، كما كانت لديه فرق من حاملي الدرق و الرماح.

و يشير ابن فرتيو بان إدريس الوما كان يشن هجماته على أعدائه في أوقات متباينة و غير معلومة، و كانت معظم غاراته في الفصول غير المطرة، بحيث ضمت تلك الغارات الشعوب الوثنية و ذلك من اجل الحصول على الرقيق، أو من اجل اخضاعهم، و كانت كثيرة العدد و مدربة جيدا، و كانت الطبقة الارستقراطية تتركب الخيول مشكلة كتيبة الفرسان، و ببدلتها المطرزة، و أحذيتها الجلدية الحمراء، و سترة قصيرة و فضفاضة، و لجام احصنتها مزينة بالجلود الملونة، لכן هذا الجيش يفتقد الى أي انظام او انضباط، حيث نجد الجنود الشباب يتباهون بسباقهم في الفروسية للتفاخر امام

1 Ibid, p77.

اهاليهم. أما بخصوص طريقة الحروب فهي بسيطة، فلقد كانت تقوم على النهب، و الغارات الفجائية، كما اعتمد على المستشارون العسكريون.

كان ادريس الوما يسلح جيشه من الأسلحة التي تحصل عليها من الدولة العثمانية ، وصف احمد بن فرتيوه واصفاً لاحدى حملات إدريس ما يلي: « هرب عبد الجليل بن بي وهرب خوفا من جيشنا. لقد ترك زوجته و ابنة يارما في بيته ، حيث تهرب منه عندما رأى تراب جيشنا يرتفع إلى السماء. لأنه كان على يقين من أن سلامة الرجل هو أفضل بالنسبة له من سلامة زوجته، فهرب من زوجته ، لأن الضرورة الشخصية أكثر إلحاحاً من عدم وجود زوجة ». ».

### ثالثا: دوره الدبلوماسي:

تميزت دبلوماسيته النشطة بعلاقات مع طرابلس ، ومصر ، والإمبراطورية العثمانية، حيث أرسلت له هذه الاخيرة بعثة دبلوماسية تتكون من 200 عضو عبر الصحراء إلى محكمة ألوما في العاصمة نجازار - غامو، اين تم توقيع على أول معاهدة مكتوبة أو وقف إطلاق نار في تاريخ تشاد.

ان النشاط الدبلوماسي و العسكري للملك ادريس جعله يصنف ضمن أنجح رجال السياسة في عصره، حيث اكتسب مكانة دولية كبيرة. فلقد كتب محمود كعت ، يقول: « إن جمهور معاصرنا يتفقون بأن هناك أربعة سلاطين لا يحسون السلطان الأعلى (سلطان القسطنطينية) للذكاء - سلطان بغداد ، سلطان القاهرة ، سلطان بورنو و سلطان ميلي ». وصف الدكتور هاي بارث ، الرحالة الألماني في القرن التاسع عشر ، إدريس الوما بأنه « أمير ممتاز ، يوحد في نفسه أكثر الصفات المعاكسة: الطاقة التي تشبه الحرب ، إلى جانب درجة من الذكاء والذكاء ؛ الشجاعة ، مع الحذر والصبر. شدة مع مشاعر ورعة ». ».

### رابعا: اصطلاحاته القضائية و القانونية:

قام إدريس الوما بعدد من الإصلاحات القانونية والإدارية على أساس الشريعة الإسلامية. رعى بناء العديد من المساجد وقام بحج إلى مكة ، حيث رتب لإنشاء بيت يستخدمه الحجاج من

إمبراطوريته. وكما هو الحال مع ساسة ديناميكين آخرين ، دفعته الأهداف الإصلاحية التي وضعها ألوما إلى البحث عن مستشاري وحلفاء مخلصين وكافيين ، وكثيراً ما اعتمد على العبيد الذين تلقوا تعليمهم في المنازل النبيلة. سعت Aloomo بانتظام للحصول على المشورة من مجلس يتكون من رؤساء أهم العشائر. طلب من الشخصيات السياسية الرئيسية أن تعيش في المحكمة ، وعزز التحالفات السياسية من خلال الزيجات المناسبة (ألوما نفسه كان ابن لأب كنوري وأم بولالا).

قام إدريس بإصلاح وتوحيد القضاء من خلال إنشاء نظام للمحاكم الإسلامية. حكم هو نفسه وفقاً للنظرية السياسية الإسلامية ، واتخذ موقفاً ضد ، من بين أمور أخرى ، الفجور في العاصمة. وقد كتب أوليفر وأتمور: «ترأس محكمة تشتهر بالمستوى العالي للمنازعات القانونية واللاهوتية». ومثل معاصريه بسنغاي كان إدريس يرفع التعليم ، ويشجع العلماء من مختلف البلدان الأفريقية الأخرى من أجل الإقامة في بورنو<sup>1</sup>.

#### خامساً: إنجازاته العمرانية:

طور إدريس الوما الملاحة على نهر يوبي. وأمر ببناء مراكب كبيرة لقواته البحرية. أما بالنسبة للنقل البري، فقد استورد عدداً أكبر بكثير من الجمال لتحل محل البغال والثيران والحمير. وكان الماي العظيم أيضاً بناءً عظيماً، حيث أقام مساجد جديدة من الطوب في المدن التي حلت محل المباني القديمة. كما أسس بيتاً في مكة المكرمة لحجاج بورنو. وبعد سقوط سونغاي في عام 1591، أصبح الماي إدريس زعيم المسلمين السود بلا منازع، كما أصبحت كانم بونو الخلافة التي ورثت سنغاي.

#### سادساً: تنظيماته الاقتصادية:

عرفت مملكة كانم بورنو تحت سلطة ألوما ثراء و مداخيل معتبرة. وكان مصدر هذه الإيرادات هي الجزية (أو الغنيمة إذا كان يجب احتلال الأشخاص المتمردين) بالإضافة إلى والغرامات الحكومية والرسوم التجارية. على عكس غرب إفريقيا ، لم يكن لدى المنطقة التشادية الذهب، لكنها كانت مركزياً لواحدة من الطرق الأكثر ملاءمة للتجارة عبر الصحراء الكبرى. فبين بحيرة تشاد وفران ، تم

1 شعباني نور الدين، محاضرات في ممالك السودان الغربي، دار الجزائر للنشر، الجزائر، 2015، طبعة أولى، ص

وضع سلسلة من الآبار والواحات، ومن فزان كانت تمتد مسالك سهلة باتجاه شمال إفريقيا والبحر المتوسط، إذ تم إرسال العديد من السلع إلى الشمال، بما في ذلك النترن (كربونات الصوديوم) ، والقطن ، وجوز الكولا ، والعاج ، وريش النعام، والعطور ، والشمع ، والجلود ، ولكن التجارة الأكثر ربحية كانت في العبيد. وشملت الواردات الملح ، والخيول ، والحريز ، والزجاج ، والسكاكين ، والنحاس.

اهتمت ألوما باهتمام بالغ في التجارة والمسائل الاقتصادية الأخرى. ويُنسب إليه الفضل في تطهير الطرق من قطاع الطرق، وتصميم قوارب أفضل لبحيرة تشاد ، وإدخال وحدات قياس قياسية للحبوب ، ونقل المزارعين إلى أراضي جديدة. بالإضافة إلى ذلك ، قام بتحسين سهولة وأمن العبور من خلال الإمبراطورية بهدف جعلها آمنة إلى درجة أن "المرأة الوحيدة المكسوة بالذهب قد تمشي مع لا تخشى إلا الله.

#### سابعاً: وفاته:

توفي ادريس ألوما في إحدى حروبه ضد قبيلة من الجنوب، ربما تكون قبيلة كامركوس (Gamergous)، حيث سقط في منطقة ألاو قرب أوجي حيث قُتل عن طريق حربة رماه بها أحد الوثنيين كان متخفياً داخل أحد الأشجار ، و دفن هناك قرب بركة ماء و التي ما تزال تحمل اسمه إلى اليوم.